القبائل العربية في الاحتجاج النحوي

دكتور/ عبدالله أحمد النهاري

أستاذ النحو والصرف المشارك، كلية التربية – جامعة صنعاء

ملخص البحث

يتناول هذا البحث القبائل العربية في الاحتجاج النحوي، وذلك من ثلاثة جوانب، هي: معيار الفصاحة وأخذ اللغة عند العلماء، والنصوص الواردة في تعيين القبائل التي أخذت عنها اللغة، وهي: نص الفارابي، ونص ابن عطية، ونص السيوطي (المنسوب للفارابي)، ونص ابن خلدون، ثم القبائل التي أخرجتها تلك النصوص عن دائرة الفصاحة والاحتجاج بلغتها. وفي ضوء ذلك قسمنا هذا الموضوع إلى ثلاثة مباحث.

وقد كشف البحث مباحثه الثلاثة عن نتائج كثيرة، أهمها:

أثبت البحث أنّ المعيار الذي أخذت في ضوئه اللغة عن القبائل العربية هو معيار السلامة اللغوية، وليس البداوة أو البعد عن العجم أو القرب من قريش أو غير ذلك مما ذكروه، وأنّ تلك السلامة اللغوية التي عولوا عليها هي التي مثَّلها القرآن الكريم في أعلى صورها.

وكشف البحث عمّا بين تلك النصوص – التي وردت عن المتأخرين بتعيين القبائل التي أخذت عنها اللغة والتي لم تؤخذ عنها – من تناقض، وأنّها جميعها لم تستند في ذلك على رواية منقولة عن أحد من اللغويين أو النحويين الأوائل الذين اضطلعوا بهذه المهمة، بل إنّ بعض ما جاء عن هؤلاء اللغويين والنحويين، وكذلك ما هو موجود في كتب النحو يتعارض بشدّة مع ما في تلك النصوص.

وكشف البحث عن أنّ ما نسبه السيوطي للفارابي من تعيين للقبائل التي أخذت عنها اللغة والتي لم تؤخذ عنها؛ يختلف إلى درجة كبيرة جداً عمّا هو في الأصل في كتاب الفارابي نفسه، وأنّ السيوطي ربّما تأثر في ذلك بما جاء في مقدمة تفسير ابن عطية من تعيين للقبائل التي لم تؤخذ عنها اللغة ومن تعليل لها، ومن ثَمَّ فإنّ الاعتماد عليه من قبل

الباحثين ونسبتهم له إلى الفارابي رأساً دون رجوع منهم إلى الأصل يُعدّ جوراً عليه وتقويلاً له ما لم يقله.

وأثبت البحث أنّ كثيرا من تلك القبائل التي أخرجوها عن الفصاحة عند أخذ اللغة كانت لا تزال في أوجِّ سلامتها وفصاحتها، بل منها ما عدّوه معياراً لهم في الأخذ كقريش، مؤكداً ذلك بما ثبت في كتب النحو من استشهاد بأشعار شعراء تلك القبائل، ممن عاشوا خلال مرحلة التدوين أو قبلها بقليل.

مقدمة

الحمد الله القائل: (إنّا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون)[الزخرف: ٣]، والصلاة والسلام على من أرسله الله رحمة للعالمين .

وبعد:

فإنّ موضوع القبائل العربية في الاحتجاج النحوي على الرغم من أهميّته إلا أنّي لم أجد – حسب اطلاعي – من كتب فيه بصورة شافية ووافية؛ تجمع أطرافه، وتدقق في نصوصه، وتكشف عن غثّه وسمينه؛ ذلك أنّ أكثر الدراسات هنا كانت إمّا أن تتناول لهجة مفردة أو لغة واحدة، مثل لغة قريش لمختار الغوث، ولهجة تميم وأثرها في اللغة الموحدة لغالب المطلبي، ولهجة هذيل لعبد الجواد الطيب، ولهجة كنانة دراسة لغوية لميساء عبود، ولغة عقيل لفهد العتيبي، ولهجة طيء في كتاب سيبويه لأحمد السامرائي، والاحتجاج بلغة كنانة وهذيل في ضوء صحيفة أبي نصر الفارابي لإيمان الكيلاني ...الخ؛ وإمّا أنّها كانت تتناول هذا الموضوع بصورة عابرة، وذلك كما هو الحال عند من كتبوا في أصول النحو وقضاياه من المحدثين، وهؤلاء غالباً ما كانوا ينطلقون في هذه القضية من نص السيوطي المنسوب للفارابي في كتابيْه: المزهر، والاقتراح، ذلك النّصُّ الذي سمّى لنا القبائل العربية التي أُخِذَتْ عنها اللغة والقبائل التي لم تؤخذ عنها. بل نادراً من حاول منهم أن يخرج عن هذا النص إلى غيره أو أن يرجع به إلى أصله في كتاب الفارابي نفسه.

أضف إلى ذلك أنّك لا تكاد تجد منهم – حسب ما اطلعنا عليه من مراجعهم – من رام نقد هذه النصوص في ضوء كتب النحو الأولى، وعرضها على ما هو موجود فيها من شواهد ولغات تصدّقها أو تكذبها، بل حتى عرضها على تلك الروايات والنصوص التي جاءت تتعارض معها في كثير من القبائل التي أخرجتها عن الفصاحة.

ومن هنا؛ فإنّ دراسة مثل هذا الموضوع والتشمير عن ساعد الجدّ لإعادة النظر فيه، تعدُّ في نظر الباحث ضرورة ملحة تفرضها طبيعة الموضوع نفسه من جهة، وحاجة الدّارسين إلى رأي سديد تطمئنّ إليه النفس في هذه القضية من جهة أخرى.

وحتى يستقيم لنا البحث، ونصل فيه إلى تلك النتيجة المرجوة، رأينا أن يُقَسَّمَ الموضوع إلى مباحث ثلاثة، تتكامل فيما بينها، وتقود إلى النتيجة ذاتها، مسبوقة بمقدمة، وملحقة بخاتمة نفصح فيها عن أهم النتائج التي كشف عنها، وتلك المباحث هي:

المبحث الأول: معيار الفصاحة وأخذ اللغة عند العلماء، وفيه نتناول طبيعة المعيار الذي كانت تؤخذ به اللغة أو تردّ عند علمائنا.

المبحث الثاني: النصوص الواردة في تعيين القبائل التي أخذت عنها اللغة، وفيه نقف وقفة جادّة وفاحصة عند تلك النصوص الواردة في تعيين تلك القبائل، وهي: نصُّ الفارابي، ونصُّ ابن عطيّة، ونصّ السيوطي المنسوب للفارابي، ونصُّ ابن خلدون. فنناقش بعضها في ضوء بعض، كاشفين عمّا بينها من توافق أو اختلاف، ثم مدى إمكانية الاعتماد عليها في هذه القضية.

المبحث الثالث: القبائل التي أخرجتها تلك النصوص عن دائرة الفصاحة والاحتجاج بلغتها، وفيه نتناول لغات بعض تلك القبائل التي أخرجوها عن الفصاحة، نتناولها في ضوء كتب النحو، وما جاء في فصاحتها من روايات وأخبار تيسر لنا الوقوف عليها؛ لنعرف ما مدى صدق تلك النصوص فيها مِن زيفها. وهذه اللغات هي: لغة قريش، وهوازن، وربيعة.

والمنهج المتبع في هذا البحث: المنهج التكاملي، وهو مزيج من الاستقراء والنقد والتحليل.

المبحث الأول

معيار الفصاحة وأخذ اللغة عند العلماء

ينبغي لنا أن نسأل أولاً عن طبيعة المعيار الذي على أساسه اعتمد نحاتنا في تقسيم القبائل العربية إلى فصيحة، يعتد بلغتها، ويؤخذ عنها، وغير فصيحة لا يعتد بها، ولا يؤخذ عنها: هل هو معيار السلامة اللغوية، أم هو معيار البداوة والانعزال والتوحش والجفاء، أم معيار البعد المكاني وعدم الاختلاط بالأمم المجاورة الأخرى، أم هو القرآن الكريم ولغة قريش، أم أن كل ذلك كان يشكل المعيار الجامع لدى نحاتنا؟

من غير شك أن معيار البداوة والبعد المكاني وعدم الاختلاط كان من أهم معاييرهم في أخذ اللغة، ويظهر ذلك جليا من ردِّ الخليل على الكسائي حين سأله عن مصدر علمه، إذ قال له: " من بوادي الحجاز ونجد وتهامة "[1] فقيَّد له الأخذ ببوادي هذه البيئات، ولم يطلقه له، وربما في هذا الجواب ما يفسر لنا قولهم: " أفصح العرب أبرِّهم، أي: أبعدهم في البر والبدو داراً "[2].

وكان الرياشي، وهو بصري، يفخر على الكوفيين بأخذهم اللغة عن فصحاء العرب في تلك البوادي النائية في وسط الجزيرة العربية، على حين أخذها الكوفيون عن أهل الحواضر ممن فسدت سلائقهم، فيقول: " إنما أخذنا نحن اللغة عن حرشة الضباب وأكلة اليرابيع، وهؤلاء أخذوا اللغة عن أهل السواد، وأصحاب الكواميخ، وأكلة الشواريز "[3].

وكان من هؤلاء الذين أخذوا عنهم اللغة أعراب عُرِفوا بأعراب الحطمة والحليمات، كانوا قد نزلوا بقطربُّل جوار بغداد، حتى تندّر بهم اليزيدي، فقال[4]:

كنّا نقيس النحو فيما مضى على لسان العربِ الأوّلِ
فجاءنا قوم يقيسونه على لغى أشياخ قُطْربّلِ

---

(١) الأنساب، أبو المظفر السمعاني، ٥/ ٦٦، إنباه الرواة، جمال الدين القفطي، ٢٥٨/٢، البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة، مجد الدين الفيروزآبادي، ص ٤٤، بغية الوعاة، جلال الدين السيوطي، ١٦٣/١.

(٢) تهذيب اللغة، أبو منصور الأزهري ١٣٤/١٥، لسان العرب، جمال الدين ابن منظور، ٥١/٤.

(٣) أخبار النحويين البصريين، أبو سعيد السيرافي، ٦٨، وإنباه الرواة، جمال الدين القفطي، ٢/ ٣٧٠ ـــــــ ٣٧١، وإكمال تهذيب الكمال، أبو عبد الله الحنفي، ٢٠٧/٧، الاقتراح في أصول النحو، جلال الدين السيوطي ١٥٧.

(٤) ينظر: أخبار النحويين البصريين، أبو سعيد السيرافي، ٣٦ و ٤٥، ونزهة الألباء، أبو البركات ابن الأنباري، ٧١، وطبقات المفسرين، للداوودي، ٤٠٦/١، وبغية الوعاة، جلال الدين السيوطي، ١٦٣/٢.

وهذا المعيار هو ما ذهب إليه أبو نصر الفارابي، وتبعه فيه السوطي، فقال: " وأنت تتبين ذلك متى تأملت أمر العربي في هذه الأشياء؛ فإنّ فيهم سكان البراري وفيهم سكان الأمصار ... ونقلوا لغتهم والفصيح منها من سكان البراري منهم دون أهل الحضر، ثم من سكان البراري من كان في وسط بلادهم، ومن أشدهم توحشا وجفاء، وأبعدهم إذعانا وانقيادا"(١).

ونعت الأزهري أعرابا وقع في أيديهم أيام القرامطة بالفصاحة، وأرجع تلك الفصاحة التي لمسها في منطقهم إلى طبيعة الحياة التي نشأوا عليها في البادية، فقال: " وكان القوم الذين وقعت في سهمهم عربا، عامتهم من هوازن، واختلط بهم أصرامٌ من تميم وأسد بالهبير نشأوا في البادية يتتبعون مساقط الغيث أيام النجيع، ويرجعون إلى أعداد المياه...ويتكلمون بطباعهم البدوية، وقرائحهم التي اعتادوا عليها، ولا يكاد يقع في منطقهم لحن أو خطأ فاحش"(٢).

ولكن هل يعقل أن تكون البداوة في حد ذاتها معياراً كافياً لأخذ اللغة عن أهلها، أو الشهادة لهم بالفصاحة وجودة القريحة، أم أنّ ذلك كانت تحكمه ضوابط أخرى، هي أهم بكثير من مجرد التعويل على قضية البداوة والتوحش والجفاء؟

إن الذي يبدو لنا من كلام ابن جني أنه لم يكن يعوّل كثيراً على هذه القضية من حيث هي بداوة، وإنما يعول على أمر آخر فيها، هو في نظره الأهم، هو معيار السلامة اللغوية، وقد عقد لذلك بابا في خصائصه، فقال: " باب في ترك الأخذ عن أهل المدر كما أخذ عن أهل الوبر: علة امتناع ذلك ما عرض للغات الحاضرة من الاختلال والفساد والخطل، ولو عُلِمَ أنّ أهل مدينة باقون على فصاحتهم، ولم يعترض شيء من الفساد للغتهم لوجب الأخذ عنهم كما يؤخذ عن أهل الوبر، وكذلك أيضا لو فشا في أهل الوبر ما شاع في لغة أهل المدر من اضطراب الألسنة وخبالها وانتقاض عادة الفصاحة وانتشارها لوجب

(١) الحروف، أبو نصر الفارابي، ١٤٧.

(٢) تهذيب اللغة، أبو منصور الأزهري، ٨/١.

رفض لغتها، وترك تلقي ما يرد عنها، وعلى ذلك العمل في وقتنا هذا؛ لأنا لا نكاد نرى بدوياً فصيحاً، وإن نحن آنسنا منه فصاحة في كلامه، لم نكد نعدم ما يفسد ذلك ويقدح فيه وينال ويغض منه "[1].

إذن فمعيار السلامة اللغوية عنده هو المعيار الأهم في قضية أخذ اللغة وتلقيها، والحكم لها بالفصاحة أو بخلافها.

وهذا المعيار الذي ذهب إليه ابن جني هو الأقرب في نظرنا إلى ما تحكيه المصادر عن منهج أبي عمرو بن العلاء في أخذه اللغة؛ فإنّه لم يكن يأخذ عن الأعراب حتى يمتحن فصاحتهم، رغم بداوتهم العريقة وسلائقهم العتيقة؛ فقد امتحن أبا خيرة الأعرابي، وهو من هو ! بدوي فصيح من فصحاء بني عدي. قال الأصمعي[2]: " دخل أبو خيرة البصري على أبي عمرو بن العلاء، فقال له: كيف تقول يا أبا خيرة: حفرت إراتك ؟ قال: حفرت إراتَك، فنصب التاء، قال: فكيف تقول: استأصل الله عِرقاتِهم؟ فقال: عِرقاتَهم، فنصب التاء، فقال أبو عمرو: هيهات أبا خيرة، لان جلدك، أريد أكشف منك جلداً، جلدك قد رقّ. قال المازني: " وكان أبو عمرو يرده، ويراه لحنا "[3].

وعندما نازعه عيسى بن عمر الثقفي في قول العرب " ليس الطيبُ إلا المسكُ "[4] بالرفع، قال له أبو عمرو: نمت أبا عمر وأدلج الناس، ليس في الأرض حجازيٌّ إلا وهو ينصب، ولا تميميّ إلا وهو يرفع، ثم طلب من خلفٍ الأحمر ويحيى بن المبارك اليزيدي أن يذهبا إلى أبي المهدي ـــ وهو حجازي باهلي ـــ فيختبراه في الرفع فإنّه لا يرفع، وإلى المنتجع التميمي فيمتحناه في النصب، فإنه لا ينصب، فكان الأمر على ما قاله أبو عمرو.

---

(١) الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني ٢/ ٦.

(٢) ينظر: أبو الفتح عثمان بن جني، الخصائص ٣٨٤/١ ، و ٢/ ١٣، والمحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده، ٦/ ٦٢، ونزهة الألباء، أبو البركات ابن الأنباري، ص ٣٢، وإنباه الرواة، جمال الدين القفطي، ٤/ ١١٧، ولسان العرب، ابن منظور ١٥/ ٢٥٠.

(٣) ينظر: المحكم والحيط الأعظم، ابن سيده، ٦/ ٦٢، وإنباه الرواة، أبو البركات ابن الأنباري، ٤/ ١١٨.

(٤) ينظر: طبقات، الزبيدي، ص ٤٤ ، وإنباه الرواة، جمال الدين القفطي، ١٣٦/٤ ـــــــ ١٣٧، وطبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين السبكي، ٩/ ٢٨٠، وهمع الهوامع، جلال الدين السيوطي، ٤٢٣/١.

وقد أخذ بهذا المنهج من بعد أبي عمرو في امتحان هؤلاء الأعراب – دون التعويل على بداوتهم – جماعة من اللغويين، أمثال الأصمعي وأبي زيد الأنصاري وغيرهما ممن كانوا يتثبتون في أخذ اللغة، حتى قال أبو زيد الأنصاري:(١) طفت في عليا قيس وتميم مدة طويلة، أسأل صغيرهم وكبيرهم؛ لأعرف ما كان منه بالضم أولى ـــــ يقصد: عين المضارع من الماضي الثلاثي ـــ وما كان منه بالكسر أولى.

إذن فابن جني كان يذهب في هذا مذهب أبي عمرو وتلامذته ممن تشددوا في أخذ اللغة، ويرى أنّ من الواجب الحذر وعدم التساهل في ذلك لمجرد أنّ من تؤخذ عنه اللغة بدوياً، بل " ينبغي أن يُستوحش من الأخذ عن كل أحد، إلا أن تقوى لغته، وتشيع فصاحته، وقد قال الفراء في بعض كلامه: إلا أن تسمع شيئاً من بدوي فصيح فتقوله "(٢) فقيد كما نرى البداوة المعتبرة بسلامة اللغة، وقوة فصاحتها وشيوعها، ثم أضاف " وعلى ذلك العمل في وقتنا هذا، لأنا لا نكاد نرى بدوياً فصيحاً، وإن نحن آنسنا منه فصاحة في كلامه، لم نكد نعدم ما يفسد ذلك، ويقدح فيه " (٣). وضرب على ذلك مثلاً بأحد المدّعين للفصاحة البدوية، فقال: " وقد كان طرأ علينا أحد من يدّعي الفصاحة البدوية، ويتباعد عن الضّعْفة الحضرية، فتلقينا أكثر كلامه بالقبول، وميّزناه تمييزا حسُن في النفوس موقعه، إلى أن أنشدني يوما شعراً لنفسه، يقول في بعض قوافيه: (أشأؤها، وأدأؤها) بوزن (أشعها، وأودعها)، فجمع بين الهمزتين كما ترى، واستأنف من ذلك ما لا أصل له ولا قياس يسوغه ... فقوي في نفسي بذلك بعده عن الفصاحة "(٤). ثم ختم ابن جني هذا الباب بتحذير جمهور اللغويين من الثقة بكل مسموع، دون تأمل حاله من الفصاحة وسلامة اللغة، فقال: " فإياك أن تخلد إلى كل ما تسمعه، بل تأمل حال مورده، وكيف موقعه من الفصاحة، فاحكم عليه وله "(٥).

ولعل هذا المعيار هو ما دفعهم إلى وضع ما يمكن تسميته بمنهج (القياس الخاطئ) خاصة في أواخر عصر الاحتجاج، حين لم يسلّموا لهؤلاء الأعراب القادمين إليهم من

(١) ينظر: المزهر في علوم اللغة، جلال الدين السيوطي، ١/ ١٦٤.
(٢) الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، ٢/ ٩.
(٣) الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، ٢/ ٥.
(٤) الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، ٢/٥ – ٧.
(٥) الخصائص أبو الفتح عثمان بن جني، ٢/ ١٠ .

البادية في كل ما يسمعونه منهم، فقد حكى ابن سلام[١] عن أبي عبيدة وابن نوح العطاردي أنّ ابن داوود بن متمم بن نويرة الأعرابي قدم عليهم البصرة فيما يقدم له البدوي، فسألاه عن شعر أبيه متمم، فلما نفد شعر أبيه جعل يزيد في الأشعار ويصنعها، وإذا كلام دون كلام متمم، فلما توالى ذلك علمنا أنه يفتعله. فكانوا لذلك يصنعون لهم قياسا خاطئا يختبرونهم فيه، فإن وقعت ألسنتهم فيه، ولمسوا منهم ما يشين سلائقهم بهرجوه، وصدوا عن الأخذ عنهم، ووصموهم بما ينبئ عن هذا الضعف السليقي.

وكان الذي أسَّس لهم هذا المنهج أبو عمرو ابن العلاء، كما تقدم معنا في اختباره أبا خيرة الأعرابي، وفي توجيهه اليزيدي وخلفاً الأحمر بامتحان المنتجع التميمي وأبي المهدي الباهلي الحجازي. وكان ابن جني أيضا ممن أخذ به، فمن ذلك قوله: " وسألت يوما أبا عبدالله محمد بن العسّاف العُقيلي الجُوثيّ التميمي ـــ تميم جُوثة ـــ فقلت له: كيف تقول: ضربت أخوك؟ فقال: أقول: ضربت أخاك، فأردته على الرفع فأبى، وقال: لا أقول أخوك أبدا، فقلت: كيف تقول: ضربني أخوك؟ فرفع، فقلت: ألست تزعم أنّك لا تقول أخوك أبدا؟ فقال: أيش هذا ؟! اختلفت جهتا الكلام "[٢].

ومنه أيضا اختباره لأبي عبدالله الشجري العُقيليّ: " كيف تجمع دكّانا؟ فقال: دكاكين، قلتُ: فَسرِحانا؟ قال: سراحين، قلتُ ، فقَرْطَانا؟ قال: قراطين، قلت: فعثمان ؟ قال: عثمانون. فقلت له: هلّا قلت عثامين؟ قال: أيش عثامين؟! أرأيت إنسانا يتكلم بما ليس من لغته؟! والله لا أقولها أبدا "[٣].

وهناك من ذهب إلى أن معيار الفصاحة هو القرآن الكريم، ولغة قريش، والبعد عن مخالطة العجم، فعلى مقدار الشبه بلغة القرآن، والقرب من قريش، والبعد عن بلاد العجم تكون فصاحة اللغة وسلامتها، قال المبرد: " وكل عربي لم تتغير لغته فصيح على مذهب قومه، وإنما يقال: بنو فلان أفصح من بني فلان، أي: أشبه بلغة القران ولغة قريش "[٤].

(١) ينظر: طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي، ١/ ٤٧ ـــــ ٤٨ .
(٢) الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، ١/ ٧٦ .
(٣) الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، ١/ ٢٤٢ .
(٤) الفاضل، أبو العباس المبرد، ١١٣ .

وإلى هذا المعيار ذهب ابن عطية في مقدمة تفسيره، فذكر لنا عدداً من القبائل التي وجبت لها الفصاحة بسبب ذلك، ونحن نورد هنا كلامه ونرجئ مناقشته إلى المبحث التالي. قال ابن عطية: " فأصل ذلك وقاعدته قريش، ثم بنو سعد بن بكر؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قرشي، واسترضع في بني سعد، ونشأ فيهم، ثم ترعرع وعقت تمائمه وهو يخالط في اللسان كنانة، وهذيلا، وثقيفا، وخزاعة، وأسدا، وضبة وألفافها؛ لقربهم من مكة، وتكرارهم عليها، ثم بعد هذه تميما، وقيسا، ومن انضاف إليهم وسط جزيرة العرب ... وهذه الجملة هي التي انتهت إليها الفصاحة، وسلمت لغاتها من الدخيل، وسبب سلامتها أنها في وسط جزيرة العرب ... فبقيت القبائل المذكورة سليمة اللغات لم تكدر صفو كلامها أمة من العجم. ويقوي هذا المنزع أنّه لما اتسع نطاق الإسلام وداخلت الأمم العرب، وتجرد أهل المصرين: البصرة والكوفة لحفظ لسان العرب وكتب لغتها، لم يأخذوا إلا عن هذه القبائل الوسيطة المذكورة، ومن كان معها "[1].

وإليه أيضا ذهب ابن خلدون، فقال: " ولهذا كانت قريش أفصح اللغات وأصرحها؛ لبعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم، ثم من اكتنفهم ... وعلى نسبة بعدهم من قريش كان الاحتجاج بلغاتهم في الصحة والفساد عند أهل الصناعة العربية "[2].

فعلى هذا القول يكون معيار الفصاحة هو القرآن الكريم ذاته، ثم القرب من قريش والبعد عن العجم، بغض النظر عن مسألة التبدي أو التحضر، وعليه أيضا تكون " بعض قبائل العرب أفصح من بعض لبعدهم من بلاد العجم، فكان من نزل القرآن بلغتهم من فصحاء العرب "[3].

هذا فيما يتعلق بمعيار الفصاحة الذي بموجبه تؤخذ اللغة ويحتج بها، أما ما يتعلق برد اللغة وعدم الأخذ بها، فإنّ الآراء هنا ربما تقل عنها هناك، ونكاد نحصرها في رأيين اثنين، هما:

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية الأندلسي، ١/ ٤٥ ـــــ ٤٦، وينظر: البرهان في علوم القرآن، للزركشي ٢١٩/١.
(٢) تاريخ ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي، ٥٥٥/١.
(٣) النكت والعيون، أبو الحسن الماوردي، ١/ ٣٠.

الأول: مجاورة الأعاجم ومخالطتهم، وأيضا العيش في الحواضر، كل ذلك من الأسباب التي توجب رد اللغة وعدم الأخذ بها، في نظر الفارابي، وابن عطية، وابن خلدون، والسيوطي(١).

" وبالجملة لم يؤخذ عن حضري قط، ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم "(٢)؛ لأنها " لم تكن لغاتهم تامة الملكة بمخالطة الأعاجم "(٣)، ولذا " تجنبوا اليمن والعراق والشام فلم يكتب عنهم حرف واحد، وكذلك تجنبوا حواضر الحجاز: مكة، والمدينة، والطائف؛ لأن السبي والتجار من الأمم كثروا فيها فأفسدوا اللغة "(٤).

والثاني: وهو ما نفهمه من كلام ابن جني الذي تقدم، وأيضا من منهج أبي عمرو بن العلاء ومن تبعه في التثبت وامتحان الأعراب، وذلك هو فساد اللسان؛ لأنّ ذلك يتبعه حتما عدم سلامة اللغة، ويتوجب معه ردّها، أيّاً كان القوم الناطقون بها: بدوا أو حَضَرَاً، من أهل الوبر كانوا أو من أهل المدر. ولذا قال ابن جني: " وكذلك أيضا لو فشا في أهل الوبر ما شاع في لغة أهل المدر من اضطراب الألسنة وخبالها وانتقاض عادة الفصاحة وانتشارها، لوجب رفض لغتها وترك تلقّي ما يرد عنها "(٥).

وعموما فإنّ الذي يظهر لنا نحن من هذه القضية، ونراه أقرب إلى طبيعة منهج علمائنا في أخذهم اللغة؛ هو معيار السلامة اللغوية الذي نبّه عليه ابن جني، فذلك هو المعيار الأهم في قضية فصاحة اللغة وأخذها وتلقّيها والاحتجاج بها، أما مسألة البداوة أو البعد عن العجم وعدم المخالطة لمن فسدت سلائقهم فهي كلها أسباب تفسر لنا أوجه السلامة اللغوية، ولا توجب لها فصاحة؛ ذلك أنّ البداوة في حد ذاتها لا تكفي لأن تكون معيارا

(١) ينظر: الحروف، أبو نصر الفارابي، ١٤٧، والمحرر الوجيز، ابن عطية الأندلسي، ٤٥/١ ـــــــ ٤٦، وتاريخ ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي، ٥٥٥/١، والمزهر في علوم اللغة، جلال الدين السيوطي، ١٦٨/١، والاقتراح في أصول النحو، جلال الدين السيوطي، ٤٧ ـــــــ ٤٨.

(٢) المزهر في علوم اللغة، جلال الدين السيوطي، ١٦٨/١.

(٣) تاريخ ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي، ٥٥٥/١.

(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية الأندلسي، ٤٦/١.

(٥) الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، ٢/ ٥.

لفصاحة أهلها أو موجبا لأخذ اللغة عنهم ما لم تكن لغتهم سليقة لهم، يتكلمونها عن أصالة وطبع سليم وقريحة صافية، وكذلك الحاضرة لا يمكن أن تكون سببا في ذاتها لرد لغة أهلها ما لم يكن هناك ما يوجب الرد من فساد لغتهم واختلال ألسنتهم؛ ولذلك قال ابن جني: " ولو عُلِمَ أنّ أهل مدينة باقون على فصاحتهم، ولم يعترض شيء من الفساد للغتهم لوجب الأخذ عنهم كما يؤخذ عن أهل المدر "(١).

ويؤيد هذا أنّ هناك من الحواضر العربية ما جاءت النصوص والروايات تشهد بفصاحتها وتجعلها في أعلى مراتب الحُجِّيَّة، بل إنّ منها ما جعلوه معياراً للفصاحة كما رأينا ذلك في لغة قريش. وكذلك الجوار والقرب من العجم أو المخالطة لا يصح أن نجعلها معايير في رد اللغة ما لم يترتب على ذلك أثراً سلبياً، ينعكس على اللسان بالفساد وعدم السلامة، ذلك لأننا نجد نحاتنا الأوائل قد اعتمدوا أشعار شعراء نشأوا مخالطين أو مجاورين للعجم، أو كانوا قد اتصلوا بهم أو بمن يتاخمهم من العرب، أو وفدوا على ملوكهم وأمرائهم من أمثال: عدي بن زيد، والأعشى الكبير صنّاجة العرب، والمهلهل بن ربيعة، وامرئ القيس، وحسَان بن ثابت، والكميت وغيرهم؛ وما ذلك إلا لأن نحاتنا قد وجدوا في أشعارهم ما يوجب الاستشهاد بها، من سلامة اللغة وجودة القريحة؛ ويدلك على ذلك أنّ الأصمعي كان قد غمز على الكميت بن زيد (ت ١٢٦هـ) شعره؛ لأنه من أهل الموصل، فقال: " الكميت جُرمُقاني من أهل الموصل، ولا آخذُ بلغته "(٢). وقال أيضا: " الكميت بن زيد ليس بحجة، لأنه مولّد ، وكذلك الطِّرماح "(٣). لكنّ لا أحداً من اللغويين أو النحويين تابعه في ذلك، بل احتجوا بشعره، وأوَّلُهم سيبويه؛ لأنهم نظروا له من جهة السلامة اللغوية، وهو نظر له من منظور البيئة والمكان، وذلك لا يقدح ولا يُوجِب ردَّ لغته ما دامت سليمة صحيحة فصيحة. قال أبو حاتم السجستاني: " وسألت عنها ـــــ أي عن اللغة

(١) الخصائص أبو الفتح عثمان بن جني، ٢/ ٥.

(٢) ينظر: أبو الفتح عثمان ابن جني، الخصائص ٣/ ٢٩٣ ـــــ ٢٩٤، والمزهر في علوم اللغة، جلال الدين السيوطي، ٢/ ٣٢٠.

(٣) فحولة الشعراء، عبد الملك بن قريب الأصمعي، ٢٠.

التي غمزه بها الأصمعي ـــ أبا زيد الأنصاري فأجازها، وكذلك سألنا عنها الأعراب فنطقوا بها"[١].

بل إنّ الشاعر أبا أمامة العبدي: زياد بن سليمان الأعجم (ت ١٠٠ هـ) كان قد ولد ونشأ في أصفهان، وكان أكثر نزوله بأصطخر من أرض فارس حتى توفي بها، فكان لذلك شديد اللكنة؛ حتى لُقِّبَ بالأعجم[٢]، فإنّنا نجد النحويين قد استشهدوا بشعره، ولم ينظروا لهذه الملابسات، بل نظروا لسلامة لغته حتى عدّه الأصمعي نفسُهُ حُجَّةً. قال أبو حاتم: " وسألته عن زياد الأعجم، فقال: حُجَّة؛ لم يتعلق عليه بلحن "[٣].

أمّا القرآن فلا شك في أنّه معيار الفصاحة الأول، وأنّ لغته أعلى اللغات على الإطلاق، وأنّ كل ما ورد به هو الفصيح، وما ورد به سواه هو دونه؛ ولكنْ مردُّ ذلك في عمومه إلى سلامة اللغة التي ورد به، ومثَّلها في أبهى صورها، تلك اللغة التي تخيّرها من أفصح اللغات العربية كافة، وكلّها في ذلك الحين كانت فصيحة، فلغته ليس لها موطن جغرافي معين كما للقبائل العربية حتى يُبْحَث عن سبب فصاحتها في بعدها عن العجم أو في التبدِّي في الصحراء أو في الانعزال، وإنما موطنها اللسان العربي كافة؛ لأنه نزل بكل لغات العرب[٤] فقال تعالى: (إنا جعلناه قرآنا عربيا) [الزخرف: ٣]، وقال: (بلسان عربيّ مبين)[الشعراء: ١٩٥]، " وهذا يدل على أنه منزل بجميع لسان العرب، وليس لأحد أن يقول: إنّه أراد قريشا من العرب دون غيرها؛ كما أنه ليس له أن يقول: أراد لغة عدنان دون قحطان، أو ربيعة دون مضر؛ لأن اسم العرب يتناول جميع العرب، ويتناول جميع هذه القبائل

(١) ينظر: الخصائص أبو الفتح عثمان بن جني، ٢٩٣/٣ ـــــ ٢٩٤، والمزهر في علوم اللغة، جلال الدين السيوطي، ٣٢٠/٢.

(٢) ينظر: طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي، ٦٩٣/٢، والعقد الفريد، ابن عبد ربه ٣٠٧/٢، والأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، ٣٧٠/١٥ ـــــ ٣٨٥، والأعلام، خير الدين الزركلي، ٣/ ٥٤.

(٣) فحولة الشعراء، عبد الملك بن قريب الأصمعي، ١٦.

(٤) ينظر: الفاضل أبو العباس المبرد، ١١٣.

تناولاً واحداً "[1] وقول من قال: نزل بلغة قريش فإنما أراد معظمه وأكثره؛ لأن لغة غير قريش موجودة في جميع القرآن، من تحقيق الهمز ونحوه، وقريش لا تهمز[2].

فثبت إذن بما تقدم أن السلامة اللغوية هي معيار الفصاحة الأهم عند علمائنا، وبموجبها كان أخذهم اللغة أو ردّها، وأنّ ما عداها مما ذُكِرَ هو في الواقع أسباب تفسر لنا كيفية حصول السلامة اللغوية، ذلك لأن من طبيعة المعيار أن يتسم بالثبات ولا يقبل الاختلاف فيه، والسلامة اللغوية كذلك، لا تقبل اختلافا فيها، بينما الأسباب من طبيعتها أن تتعدد فيها وجهات النظر، وتختلف باختلاف الزاوية المنظور إليها منها، ولهذا كانت بقيِّة تلك المعايير أسباباً في الواقع، لا معايير؛ فتعددت عند ذلك واختلفت بتعدد واختلاف وجهات النظر الواردة فيها.

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٤٤/١، والبرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي ٢٨٤/١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٤٤/١، والبرهان، بدر الدين الزركشي ٢١٩/١ ـــــــ ٢٢٠، والإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، ١٢٣/٢.

المبحث الثاني

النصوص الواردة في تعيين القبائل العربية التي أُخذت عنها اللغة

سيقتصر هذا المبحث على مناقشة أربعة نصوص هي من أشهر النصوص التي وقفنا عليها، وردت في تعيين القبائل التي أخذت عنها اللغة واحتج بها، والقبائل والأمصار التي لم يؤخذ عنهم شيء من ذلك، وهي: نص الفارابي في كتابه الحروف، ونص ابن عطية في مقدمة تفسيره، ونص ابن خلدون في تاريخه، ونص السيوطي المنسوب لأبي نصر الفارابي الذي ورد في المزهر والاقتراح؛ نناقشها في ذاتها من حيث هي أولا، ثم ننقدها في ضوء بعضها بعضا، كاشفين عمّا بينها من توافق أو اختلاف، وعن منطلقها ومصدرها في ذلك، وإلى أيّ مدى يمكننا أنّ نعتمد عليها ونقطع بما ورد فيها؛ حتى نصل من ذلك إلى الصواب، أو إلى ما تطمئن إليه النفس في هذه القضية.

وسنبدأ في عرضها من نص الفارابي ثم نعقبه بما ورد عند ابن عطية، يليه ما ورد عند السيوطي؛ وذلك لشدة التقارب والشبه بينها، ثم ما ورد عند ابن خلدون، وذلك على النحو الآتي:

أولاً: نص الفارابي:

انطلق الفارابي في نصه من قضية مهمة جداً، أسّس بها لما جاء في نصه من تعيين للمعايير التي أخذت بها اللغة وللقبائل التي أخذت عنها، تلك القضية هي قضية المخالطة للأعاجم والعيش بالجوار منهم، وما يتبع ذلك من سرعة انقياد ألسنتهم وتأثرها بعجمتهم؛ ولذلك أثنى على البداوة والتوحش والجفاء من هذه الناحية، فقال: " ولما كان سكان البرّية ... من كل أمة أجفى وأبعد من أن يتركوا ما قد تمكّن بالعادة فيهم، وأحرى أن يحصّنوا أنفسهم عن تخيّل حروف سائر الأمم وألفاظهم ... وأحرى أن لا يخالطهم غيرهم من الأمم للتوحش والجفاء الذي فيهم، وكان سكان المدن والقرى وبيوت المدر منهم أطبع، وكانت نفوسهم أشد انقياداً لتفهّم ما لم يتعودوه ... كان الأفضل أن تؤخذ لغات الأمة عن سكان البراري منهم ... ويتحرّى منهم من كان في أواسط بلادهم؛ فإنّ من كان في الأطراف منهم [لا يُؤمن] أن يخالطوا مجاوريهم من الأمم؛ فتختلط لغاتهم بلغات أولئك "[1].

(١) الحروف، أبو نصر الفارابي، ١٤٦.

ثم دلّل على ذلك بصنيع علمائنا في جمع اللغة وتدوينها، فقال: " وأنت تتبين ذلك متى تأملت أمر العربي في هذه الأشياء؛ فإنّ فيهم سكان البراري وفيهم سكان الأمصار ... وكان الذي تولى ذلك من بين أمصارهم أهل الكوفة والبصرة من أرض العراق؛ فتعلموا لغتهم والفصيح منها من سكان البراري منهم دون أهل الحضر، ثم من سكان البراري من كان في أوسط بلادهم، ومن أشدهم توحشا وجفاء، وأبعدهم إذعانا وانقيادا، وهم: قيس، وتميم، وأسد، وطيء، ثم هذيل؛ فإنّ هؤلاء هم معظم من نقل عنه لسان العرب، والباقون فلم يؤخذ عنهم شيء؛ لأنهم كانوا في أطراف بلادهم مخالطين لغيرهم من الأمم، مطبوعين على سرعة انقياد ألسنتهم لسائر الأمم المطبقة بهم من الحبشة والهند والفرس والسريانيين وأهل الشام وأهل مصر "(١).

فمن هذا النص نلاحظ أموراً مهمة ينبغي أن ننبّه عليها، وهي:

أ ـــ أنّ الفارابي يجتهد اجتهاداً في تعيينه لتلك القبائل التي سمّاها؛ ولا يعتمد فيها على رواية منقولة، وإنما ذلك أمر يتبيّن لك بالتأمل لا أكثر حسب كلامه، أي التأمل في حال البيئات العربية عند تدوين اللغة، التي كانت تتوزع بين بيئات منعزلة تتوافر لها أسباب الصَّون والسّلامة، وهي بيئات سكان البراري في وسط الجزيرة العربية، وبين بيئات فقدت ذلك السياج المنيع من الانعزال والتوحش والجفاء، وهي بيئات الحواضر ومن خالطوا الأعاجم أو جاوروهم.

ب ـــ أنّه لم يحصر أخذ اللغة في تلك القبائل التي عيّنها، وهي: قيس، وتميم، وأسد، وطيء، وهذيل، وإنما جعل معظمه عنها؛ وذلك يعني أنّ الأخذ قد تعداها إلى غيرها من القبائل التي لم يذكرها، أمّا قوله: " والباقون فلم يؤخذ عنهم شيء "؛ فإنه لا يقصد بهم من كانوا مع تلك القبائل في وسط الجزيرة العربية؛ وإنما أولئك الذين كانوا على أطرافها مجاورين لغيرهم؛ ولذلك فسر مراده منه بقوله: لأنهم كانوا في أطراف بلادهم مخالطين لغيرهم من الأمم...

ج ـــ أنّه أجمل الإشارة إلى القبائل التي لم تؤخذ عنها اللغة، ولم يسمِّ لنا شيئا منها، واكتفى في ذلك ببيان السبب العام، وهو التَّحضر أو المجاورة لتلك الأمم الأعجمية

(١) الحروف، أبو نصر الفارابي، ١٤٧.

ومخالطتها. وعلى هذا الاعتبار فإنَّ لنا أنْ نتساءل: كيف ساغ إخراجُ قريشٍ، وكنانة، وثقيفٍ، وهوازنَ، وغيرها، وهي قبائل تتوسط قلب الجزيرة العربية، ولا يقع شيء منها مجاورا لتلك الأمم ؟! نعم إن خرجت قريش للتحضر والمخالطة ـــ مع عدم تسليمنا بهذا السبب؛ كون ذلك كان السبب في سموِّ لغتها ورقيّها وتميّزها ـــ فكيف يخرج غيرها من تلك القبائل التي ذكرنا، وهي لم تكن متحضرة، ولا كانت أيضاً مخالطة؟ أضف إلى ذلك أنّ هناك نصوصاً وردت عن القدامى تثني بالفصاحة على لغات هذه القبائل، وتؤكد الأخذ عنها والاحتجاج بها، كما سيأتي ذلك لاحقاً.

ثانياً: نص ابن عطية:

أمّا ابن عطية فقد انطلق في تعيين القبائل الفصيحة التي أخذت عنها اللغة من منطلق تفسير الحديث الوارد في (نزول القرآن على سبعة أحرف)، ويبدو لنا من كلامه أنه قد جمع في نصه بين ما قيل في تفسير هذا الحديث من أقوال ذهب معظمها إلى أنّ المراد به سبع لغات من لغات العرب، ثم اختلفوا في تعيينها وأكثروا، وبين ما قاله الفارابي في نصِّه السابق، فقال: " ومال كثير من أهل العلم كأبي عبيد وغيره إلى أن معنى الحديث المذكور أنه نزل على سبع لغات لسبع قبائل ... واختلفوا في التسمية وأكثروا، وأنا ألخص الغرض جهدي بحول الله: فأصل ذلك وقاعدته قريش، ثم بنو سعد بن بكر؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قرشي، واسترضع في بني سعد، ونشأ فيهم، ثم ترعرع وعقت تمائمه وهو يخالط في اللسان كنانة، وهذيلا، وثقيفا، وخزاعة، وأسدا، وضبة وألفافها؛ لقربهم من مكة، وتكرارهم عليها، ثم بعد هذه تميما، وقيسا، ومن انضاف إليهم وسط جزيرة العرب ... وهذه الجملة هي التي انتهت إليها الفصاحة، وسلمت لغاتها من الدخيل، وسبب سلامتها أنها في وسط جزيرة العرب في الحجاز ونجد وتهامة، فلم تطرقها الأمم "[1].

ثم أخذ في ذكر من لم تؤخذ عنهم اللغة وبيان أسباب ذلك، ومن هنا تحديداً يبدأ تأثره بالفارابي في فكرة الحواضر والجوار، فقال: " فأمّا اليمن، وهي جنوبي الجزيرة، فأفسدت كلام عربه خلطة الحبشة والهنود ... وأما ما والَى العراقَ في جزيرة العرب، وهي بلاد ربيعة وشرقي الجزيرة، فأفسدت لغتها مخالطة الفرس والنبط ونصارى الحيرة وغير ذلك.

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية الأندلسي، ٤٥/١ ـــــ ٤٦.

وأما الذي يلي الشام، وهو شمالي الجزيرة، وهي بلاد آل جفنة وابن الراملة وغيرهم، فأفسدها مخالطة الروم وكثير من بني إسرائيل. وأما غربي الجزيرة فهي جبال تسكن بعضها هذيل وغيرهم، وأكثرها غير معمورة؛ فبقيت تلك القبائل المذكورة سليمة اللغات، لم تكدر صفو كلامها أمة من العجم. ويقوّي هذا المنزع أنّه لما اتّسعَ نطاق الإسلام وداخلت الأمم العرب، وتجرّد أهل المصرين: البصرة، والكوفة لحفظ لسان العرب وكتب لغتها، لم يأخذوا إلا عن هذه القبائل الوسيطة المذكورة ومن كان معها، وتجنّبوا اليمن والعراق والشام فلم يكتب عنهم حرف واحد، وكذلك تجنّبوا حواضر الحجاز: مكة، والمدينة، والطائف؛ لأن السبي والتجار من الأمم كثروا فيها؛ فأفسدوا اللغة، وكانت هذه الحواضر في مدة النبي صلى الله عليه وسلم سليمة؛ لقلّة المخالطة "[1].

وأهم ما يمكننا ملاحظته في نصه هو الآتي:

أ ـــ أنّه فصّل لنا ما أجمله الفارابي في نصه بشأن القبائل التي لم تؤخذ عنها اللغة، وعلل لكل واحدة منها، معتمداً في ذلك على مسألة الجوار والمخالطة من جهة، وعلى مسألة الحاضرة من جهة أخرى، ولكنه خالفه في عدد اللغات فذكر عشراً، منها ما ليس قبيلة، وإنما بطنا أو فرعا عنها، وهي: قريش، بنو سعد، كنانة، هذيل، ثقيف، خزاعة، أسد، ضبة، تميم، قيس، موافقا له في أربع منها، ومخالفا له في البقية.

ب ـــ وخالفه أيضا في (طيء) فأسقطها، وفي القطع بأنّ اللغة لم تؤخذ إلا عن هذه القبائل الوسيطة المذكورة، وأنّ ما سواها لم يكتب عنهم حرف واحد. وتناقض قوله هنا، فبينما كان قد ذهب في أول كلامه إلى عدّ قريش وثقيف من قبائل الوسط التي بقيت لغاتها سليمة لم يكدر صفو كلامها أمة من العجم، والتي لم تؤخذ اللغة إلا عنها، عاد فنقض ذلك بقوله: " وكذلك تجنبوا حواضر الحجاز: مكة والمدينة والطائف...".

ثالثاً: نص السيوطي:

أمّا السيوطي فقد نسب نصه إلى الفارابي في كتابه الذي سمّاه (الألفاظ والحروف)، والواقع أنّهما كتابان لا كتاب واحد، بل الأصح أنّ (الحروف) هو الكتاب، أمّا (الألفاظ) فهو رسالة صغيرة، وكلاهما مستقل عن الآخر، ولا ندري هل كانت النسخة التي اعتمد عليها

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية الأندلسي، ٤٦/١.

السيوطي تضم الكتابين أم لا؟ لأن النص عند الفارابي لم يرد إلا في كتابه (الحروف) فقط، وبالصورة تلك التي نقلناها عنه سابقا؛ أمّا عند السيوطي فهو يختلف تماما عن أصله، ويجمع بينه وبين ما جاء عند ابن عطية، بل إنّ الشبه بينه وبين هذا الأخير أقوى منه بينه وبين أصله.

والمؤسف أنّ الكثير ممن تناولوا قضية الاحتجاج أو الفصيح من اللغات كانوا يرجعون في ذلك إلى ما ورد عند السيوطي وينسبونه للفارابي رأساً، ومن أبرز هؤلاء الدكتورة / ميساء صائب رافع عبود، في بحثها الموسوم بـ(لهجة كنانة: دراسة لغوية) إذ نسبت إلى الفارابي ذكره كنانة ضمن القبائل التي أخذت عنها اللغة، معتمدة ما جاء عند السيوطي؛ رغم رجوعها إلى المصدر الأصلي كما يبدو لنا من هامشها وقائمة مصادرها، ولا ندري كيف ساغ لها ذلك[1]. وأيضا الباحثة إيمان محمد أمين الكيلاني، في بحثها الموسوم بـ(الاحتجاج بلغة كنانة وهذيل في ضوء صحيفة أبي نصر الفارابي)[2]، فقد صدّرته بما ورد عند السيوطي تحت عنوان (صحيفة أبي نصر الفارابي)، ولم ترجع فيه إطلاقا إلى الأصل، وأقامت بحثها في جانب منه على لغة كنانة؛ على أنها من القبائل التي ذكرها الفارابي، وذلك ما لم يذكره الفارابي كما رأينا في نصِّه، ونسبت له أيضا ما في النص من تعيين أو تسمية للقبائل التي لم تؤخذ عنها اللغة، وفي ذلك جور عليه. بل اعتمدت الباحثة في نقلها النص على طبعة يبدو أنّها غير محققة تحقيقا علميّا، فيها من التناقض الأمر العجيب، ليس هذا مكان مناقشتها. وحتى تدرك ما بين النصين من اختلاف وتفاوت إليك ما جاء عند السيوطي منسوبا للفارابي: " وقال أبو نصر الفارابي في أول كتابه المسمى (الألفاظ والحروف): " وكانت قريش أجود العرب انتقادا للأفصح من الألفاظ، وأسهلها على اللسان عند النطق، وأبينها إبانة عما في النفس. والذي عنهم نقلت اللغة، وبهم اقتدي، وعنهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم: قيس وتميم وأسد، فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه، وعليهم اتكل في الغريب والإعراب والتصريف، ثم هذيل، وبعض كنانة وبعض الطائيين، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم. وبالجملة لم يؤخذ عن

(١) ينظر: لهجة كنانة دراسة لغوية، ميساء صائب عبود، ص ١٥٩ وما بعدها.

(٢) ينظر: الاحتجاج بلغة كنانة وهذيل في ضوء صحيفة أبي نصر الفارابي، إيمان محمد الكيلاني، ص ١٢٠ وما بعدها.

حضري قط، ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم؛ فإنه لم يؤخذ من لخم ولا من جذام؛ لمجاورتهم أهل مصر والقبط، ولا من قضاعة وغسّان وإياد؛ لمجاورتهم أهل الشام، وأكثرهم نصارى يقرأون بالعبرانية، ولا من تغلب والنّمر؛ فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان، ولا من بكر؛ لمجاورتهم للنبط والفرس، ولا من عبد القيس وأزد عمان؛ لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس، ولا من أهل اليمن؛ لمخالطتهم للهند والحبشة، ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة، ولا من ثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم تجار الأمم المقيمين عندهم، ولا من حاضرة الحجاز؛ لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدأوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم؛ ففسدت ألسنتهم.

والذي نقل اللغة واللسان العربي عن هؤلاء وأثبتها في كتاب، وصيّرها علما وصناعة هم أهل الكوفة والبصرة فقط من بين أمصار العرب "[1].

إنّ أهم ما يمكن أن نقف عنده في هذا النص هو أنّه يختلف مع أصله في أمور جوهرية، أهمها:

أ ـــ أنّ الفارابي هناك بدأ كلامه ببيان المعيار الذي على أساسه نقلت اللغة، ثم ذكر بعد ذلك القبائل التي أخذت عنها؛ لانطباق ذلك المعيار عليها، أمّا هنا فالنص يبدأ بامتداح لغة قريش، وذلك ما ليس في الأصل، يليه مباشرة تعيين القبائل وتسميتها.

ب ـــ ولم يُقيِّد الفارابي أخذَ اللُّغةِ بالقبائل التي ذكرها، أو يحصر ذلك فيها، أمّا هنا فالنص يقطع بذلك، فهو يقول: " والذي عنهم نقلت اللغة، وبهم اقتدي، وعنهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب، هم: قيس وتميم وأسد ...".

ج ـــ واقتصر الفارابي هناك على ذكر خمس قبائل فقط، هي: قيس، وأسد، وتميم، وطيء، وهذيل، وأطلق الأخذ عنها جميعها، ولم يقيّد شيئا منها ببعضها، أما هنا عند السيوطي فالقبائل ست، بإضافة (بعض كنانة)، وأيضا تقييده الأخذ عن طيء ببعضها، والجزم بعدم الأخذ عن بعضها الآخر.

---

(١) المزهر في علوم اللغة، جلال الدين السيوطي، ١٦٨/١، والاقتراح في أصول النحو، جلال الدين السيوطي، ٤٨ ـــــ ٤٧.

د ـــ وأجمل الفارابي الإشارة إلى من لم تؤخذ عنهم اللغة، واكتفى بذكر أسباب ذلك، بينما أغرق النص هنا في تفصيل تلك القبائل وتسميتها والتعليل لها، على غرار ما رأيناه عند ابن عطيّة، بل فاقه في ذلك حتى بدا متكلفا للتعليل مع بعضها، وخالي الوفاض منه مع بعضها الآخر.

هـ ـــ ووافق السيوطي ابن عطية في التناقض الذي وقع فيه بشأن لغة قريش، إذ بدأ نصه بامتداح لغة قريش ثم ما لبث أن عاد في آخره فنقض ذلك. وفي هذه النقطة والتي قبلها ما يؤكد لنا أنّ السيوطي قد عاد في هذا النص إلى ما جاء عند ابن عطية، فجمع بينه وبين كلام الفارابي معا، ولم يعد فيه الفارابي وحده.

رابعاً: نص ابن خلدون:

ينطلق ابن خلدون في نصه من نفس المنطلق الذي انطلق منه الفارابي وهو تأثر الملكة اللغوية بمخالطة الأعاجم، ولكنه يخالفه في معيار أخذ اللغة؛ إذ هو عنده قريش من حيث نسبة القرب والبعد عنها، فيقول: " ثم إنّه لما فسدت هذه الملكة لمضر بمخالطتهم الأعاجم، وسبب فسادها أن الناشئ من الجيل صار يسمع في العبارة كيفيات أخرى عن الكيفيات التي كانت للعرب ... فاختلط عليه الأمر، وأخذ من هذه وهذه ... ولهذا كانت لغة قريش أفصح اللغات العربية وأصرحها؛ لبعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم، ثم من اكتنفهم من ثقيف وهذيل وخزاعة وبني كنانة وغطفان وبني أسد وبني تميم. أما من بعد عنهم من ربيعة ولخم وجذام وغسان وإياد وقضاعة وعرب اليمن المجاورين لأمم الفرس والروم والحبشة، فلم تكن لغتهم تامة الملكة؛ بمخالطتهم الأعاجم. وعلى نسبة بعدهم من قريش كان الاحتجاج بلغاتهم في الصحة والفساد عند أهل الصناعة العربية "[1].

وأهم ما يمكننا ملاحظته عنده: أنه لم يقع فيما وقع فيه ابن عطية والسيوطي من تناقض بخصوص لغة قريش وثقيف، فهي عنده وجه الفصاحة ومقياس الاحتجاج في الصحة والفساد ثم من اكتنفها من ثقيف وهذيل وخزاعة وبني كنانة ...الخ.

وأيضا تركيزه الكبير على لغات القبائل الحجازية: قريش وثقيف وخزاعة وكنانة وغطفان وهذيل فأضاف بذلك إلى ما ذكروه: خزاعة وغطفان؛ وأيضا قريشا وثقيفا.

(١) تاريخ بن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي، ٥٥٥/١.

ووافقهم في بعض القبائل التي عدّوها خارجة عن الفصاحة، ولكنه لم يغرق في التفصيل أو التعليل، وإنما اكتفى بالسبب العام كالفارابي.

بل إنّ ابن خلدون يخالفهم في قضية رئيسة هي أنّه يعدّ تلك الحواضر كقريش وثقيف من أهل التوحش والجفاء، فقال في موضع آخر: " الصريح من النسب إنما يوجد للمتوحشين في القفر من العرب ومن في معناهم ... فلا ينزع إليهم أحد من الأمم أن يساهمهم في حالهم ... فَيُؤمنُ عليهم لأجل ذلك من اختلاط أنسابهم وفسادها... واعتبر ذلك في مضر من قريش وكنانة وثقيف وبني أسد وهذيل ومن جاورهم من خزاعة ..."(١).

إذن يتبيّن لنا من كل ما تقدَّم أنّ هذه النصوص قد اتفقت جميعها أو معظمها على فصاحة القبائل التالية: تميم وهذيل وكنانة وأسد وقيس. ولا خلاف في فصاحة هذه القبائل بل إنّ النصوص عن القدامى تؤيدهم فيها، وإليك بعضا مما جاء عنهم بشأن فصاحتها: يقول الفراء: "سمعت بعض العرب يقول: تترك بني أسد وهم فصحاء "(٢)، " وأنشدني بعض بني دبير، وهم فصحاء بني أسد "(٣) " وقال معاوية للنخّار العدوي: أخبرني عن أفصح العرب، فقال: والله إني أبغضهم، هم بنو أسد بن خزيمة "(٤). وفي العين: " أفصح العرب نصر قُعَيْن أو قُعَيْن نصر"(٥)، وهما قُعَيْنَان: بطن من أسد، وهو قُعَيْن بن الحارث بن ثعلبة بن دوادن بن أسد، وقُعَيْن الآخر في قيس بن عيلان(٦). وقال رجل من الأعراب للكسائي: " تركتَ أسدا وتميما وعندهما الفصاحة ! "(٧). وقال أبو عمرو: " أ فصح الناس عليا تميم وسفلى قيس "(٨) ، وفي الفاضل للمبرد " وكنّا نسمع أصحابنا يقولون: أفصح الناس: تميم، وقيس، وأزد

(١) تاريخ بن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي، ١٢٩/١.

(٢) معاني القرآن، الفراء ٣/ ١٤.

(٣) معاني القرآن، الفراء ٢/ ٣٠٦، وشرح ابن عقيل ١١٥/٢.

(٤) الأنساب، السمعاني ٤٧٠/٥.

(٥) كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، ١٦٩/١.

(٦) ينظر: المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده، ٢٢٥/١، ولسان العرب، ابن منظور ٣٤٥/١٣ (مادة قَعَن)، وتاج العروس، مرتضى الزبيدي، ١٣/٣٦ المادة ذاتها.

(٧) ينظر: الأنساب، السمعاني ٥/ ٦٦، وإنباه الرواة، جمال الدين القفطي، ٢٥٨/٢، والبلغة في تراجم أئمة النحو واللغة، الفيروزآبادي، ٤٤، وبغية الوعاة، جلال الدين السيوطي، ١٦٣/١.

(٨) العمدة في محاسن الشعر، ابن رشيق القيرواني، ١/ ٨٩، والمزهر في علوم اللغة، جلال الدين السيوطي ٤١٠/٢.

السراة، وبنو عَذْرَة ... وفي الحديث أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ورد عليه الوفود، فأقرأ الأخماس كل خُمس بلغته، فكان أعربَ القوم تميمٌ "[١]. وكان أبو زيد الأنصاري يكثر التطواف في قبائل قيس وتميم حتى قال: " طفت في عليا قيس وتميم مدة طويلة أسأل صغيرهم وكبيرهم... "[٢]. وكان أبو عمرو يقول: أفصح الناس ألسنا وأعربهم أهل السروات، وهن ثلاث؛ فأولهن هذيل[٣]، وسئل حسّان بن ثابت رضي الله عنه عن أشعر الناس حيّا فقال: هذيل [٤]، وهم من أفصح العرب، ومن سكان السروات المطلة على تهامة، وكانوا مشهورين بالفصاحة، ولهم صولة [٥]، وبنو صاهلة بن كاهل قبيلة من هذيل يقال لهم: الكاهليون، وهم من أفصح العرب[٦].

فهذا غيض من فيض نكتفي به؛ خوف الاطالة، نؤكد به على أنّ هذه القبائل لا خلاف في فصاحتها.

ويتبين لنا أيضا أنّهم قد اختلفوا في فصاحة قريش وثقيف في أثناء تدوين اللغة، فأخرجها ابن عطية والسيوطي من ذلك؛ لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدأوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم؛ ففسدت ألسنتهم. وخالفهم ابن خلدون فجعلها معيارهم في الاحتجاج بلغات القبائل الأخرى من حيث الصحة والفساد؛ ثم اتفق ابن عطية وابن خلدون على فصاحة خزاعة، والفارابي والسيوطي تبعا له على فصاحة طيء، وعليه يكون إجمالي العدد المذكور عندهم جميعا هو أربع عشرة قبيلة وفرعا.

ونرى أيضا أنّهم جميعا لم يعتمدوا في ذلك على رواية منقولة عن أصحاب الشأن من أوائل اللغويين أو نحاتهم؛ وإنّما سبيلهم في ذلك كله الاجتهاد، وهو اجتهاد مبنيٌّ حتما على ضوء ما وقع في أيديهم من روايات كتلك التي أضفناها، والتي كانت تدعو إليها

(١) الفاضل، أبو العباس المبرد ١١٣.

(٢) المزهر في علوم اللغة، جلال الدين السيوطي ١/ ١٦٤.

(٣) ينظر: العمدة في محاسن الشعر ٨٨/١، معجم البلدان، ياقوت الحموي ٣/ ٢٠٥، المزهر في علوم اللغة، جلال الدين السيوطي، ٤١٠/٢.

(٤) فحولة الشعراء، عبد الملك بن قريب الأصمعي ١٩، والعمدة في محاسن الشعر، ابن رشيق القيرواني، ٨٨/١ .

(٥) نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب أبو الحسن الأندلسي ١/ ٤٠٨.

(٦) ينظر: تاج العروس، مرتضى الزبيدي، ٣٦٥/٣٠ .

مناسبات خاصة، كسؤال يُطرح على علمائنا، أو إشادة منهم بأفصحها، ولم تأت بغرض بيان القبائل التي أخذوا عنها والقبائل التي لم يأخذوا عنها. بل إنّنا رأينا كل واحد من هؤلاء ينطلق في نصِّه من منطلق مغاير للآخر، تحكمه طبيعة القضية أو الفكرة التي كان بصددها؛ مما يحتم علينا البحث في هذه المسألة ويستوجب إعادة النظر فيها.

ويتضح لنا أيضا أنّ النص الذي نسبه السيوطي للفارابي يختلف إلى درجة كبيرة جدا عمّا هو موجود في كتاب الفارابي، وأنّ شبهه بنص ابن عطية أقرب. وفي هذا نأخذ على من رجعوا إليه من الباحثين ونسبوه للفارابي رأسا دون رجوع منهم إليه في كتابه – وهو مطبوع ـــ نأخذ عليهم إجحافهم بحق الأمانة العلمية، وما تقتضيه منهم من رجوع بالحقيقة أو الفكرة إلى مصادرها وعرضها عليها والتثبت منها.

وهنا أيضا نخالف ما ذهبت إليه الباحثة إيمان محمد الكيلاني في بحثها المتقدم ذكره؛ من أنّه لا تناقض بين ما ورد في مطلع نص الفارابي (تقصد ما ورد عند السيوطي) من نعت قريش بالفصاحة، وبين ما جاء في آخره من عدم الأخذ عن حاضرة الحجاز؛ قالت: " ذلك أنّ قريشا من كنانة من جهة "، " فتكون قريش بذلك من بعض كنانة الذين أُخذت عنهم اللغة "[1]؛ إيمانا منها بأنّ كنانة من القبائل التي ذكرها الفارابي، وبالتالي فقريش مفهومة ضمنيا منها. وليس كذلك؛ لأنّ الفارابي لم يذكرها، ولو أنّها رجعت إلى المصدر الأصلي لما وقعت في هذه الفوضى، بل لو اطلعت على ما ورد في مقدمة تفسير ابن عطية، لعلمت يقينا أنّ قريشا خارجة عنده عن ذلك نصا، وأنّ السيوطي قد تأثر به في ذلك.

وعموما فإنّ الذي نراه نحن في هذه القضية ويظهر لنا من تلك المناقشة أنّ أقرب هذه النصوص إلى المنطق وأكثرها مساغا وقبولا هما نصَّا الفارابي وابن خلدون، ولكن بالجمع بينهما معا، فنأخذ مما جاء عند الفارابي عدم قطعه بأنّ الأخذ كان حصرا في تلك القبائل التي ذكروها، ونأخذ مما قاله ابن خلدون جزمه بفصاحة الحواضر العربية أثنا أخذ اللغة، تلك التي كانت في وسط الجزيرة العربية كقريش وثقيف؛ وذلك أنّ هاتين النقطتين تؤكدهما كتب اللغة والنحو، فهي تضمّ ألوانا مختلفة من الشواهد واللغات التي تكاد تتناول جميع لغات القبائل العربية المختلفة، وهو أيضا ما يؤكده منهج القرآن الكريم الذي أخذ من

(١) ينظر: الاحتجاج بلغة كنانة وهذيل في ضوء صحيفة أبي نصر الفارابي، إيمان محمد الكيلاني، ص ١٢٠ و ١٢٢.

كل تلك اللغات أفصحها، ولم يستثن منها لغة قط، فكان لذلك جديرا بأنْ ينسبه ربنا إلى لسان هذه الأمة العربية كافة، وليس إلى أي لغة مما ذكروها، فقال تعالى: (بلسان عربي مبين)[الشعراء: ١٩٥].

وعلى ذلك أيضا كان يقوم منهج علمائنا في أخذهم اللغة وجمعها، فكانوا يستهدفون به تلك اللغات العربية كافة، ولكن في ضوء ذلك المعيار الذي ثبت لنا في المبحث الأول: وهو معيار السلامة اللغوية؛ ذلك أنّهم كانوا يرمون من وراء هذا المنهج إلى وضع قواعد كليّة تحمي هذا اللسان الجمعي المبين، الذي لم يكن لسان تميمٍ وحدها ولا قيس ولا كنانة ولا غيرها مما ذكروها، ولو أنهم كانوا قد اقتصروا في أخذ اللغة على تلك القبائل فقط ، لما كان استقام لهم أمر، ولا انضبط لهم شأن؛ لأنهم عندئذ كانوا سيضعون لنا قواعد تمثل خصائص تلك اللهجات وظواهرها، لا خصائص ذلك اللسان العربي المشترك العام.

أمّا ماعدا ذلك مما جاء عند هذين الرجلين، ومن باب أولى ما جاء عند ابن عطية والسيوطي، فأننا نخالفهم فيه جملةً؛ لما فيه من إجحاف بحق تلك اللغات التي أخرجوها من الفصاحة، دون أيّ سند لهم في ذلك عن أوائل النحويين أو اللغويين، والمبحث التالي هو ما سيؤكد لنا حقيقة ما قالوه بشأنها أو ينفيه عنها.

المبحث الثالث

القبائل التي أخرجتها النصوص عن دائرة الفصاحة والاحتجاج بلغتها

إذا كان قد ثبَتَ لنا من المبحث الأول أنَ المعيار الذي كان تؤخذ به اللغة هو معيار السلامة اللغوية، وفي المبحث الثاني أنّه لم يرد نص عن أوائل النحويين أو اللغوين يقطع بأنّ الأخذ كان محصورا في تلك القبائل التي وردت بها النصوص عن المتأخرين، فإنّنا في هذا المبحث سنتناول القبائل التي أخرجتها تلك النصوص عن الاحتجاج بلغتها، وجزمت بأنّ اللغة لم تؤخذ عنها أثناء التدوين.

ولن نتناولها كلها؛ لأن ذلك يتطلب رسالة علمية، بل رسائل متخصصة بكل قبيلة، وإنما نتناول بعضا منها، حسب ما جمعناه من مادة عنها؛ إشارةً منّا للمهتمين بمواصلة هذا الطريق، وتقليب النظر فيه؛ وصولا إلى الحقيقة التي تطمئن إليها النفس في هذه القضية.

والقبائل التي سنقتصر عليها هنا، هي: قريش ، وهوازن وألفافها، وربيعة. وعمدتنا في ذلك ـــ إلى جانب الروايات الواردة في فصاحتها ـــ كتب النحو التي ضمت شواهد شعرية كثيرة تعود إلى شعراء هذه القبائل الذين عاصروا أوائل النحويين واللغويين في مرحلة تدوين اللغة أو قبلها بقليل، أي: في العصر الأموي تحديدا.

أولا: قريش:

قال ابن فارس في الصاحبي: " أجمع علماؤنا بكلام العرب، والرواة لأشعارهم، والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالّهم أنّ قريشا أفصح العرب ألسنة، وأصفاهم لغة... وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها، إذا أتتهم الوفود من العرب تخيّروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم، وأصفى كلامهم؛ فاجتمع ما تخيّروا من تلك اللغات إلى نحائرهم وسلائقهم التي طبعوا عليها، فصاروا بذلك أفصح العرب "[1].

إنّنا نفهم من هذا أنّ حضريّة قريش ومخالطتها لغيرها لم تكن مفسدة، بل كانت السبب الأول في فصاحتها، وذلك عكس ما ذهب إليه ابن عطية والسيوطي فيها؛ ذلك أن " حضارتها كانت عاملا ذا تأثير إيجابي على لغتها، في حين كان عامل الحضارة لغيرها ذا تأثير سلبي على لغات القبائل الأخرى، وهذا مقبول؛ لأن الفعل قد ينتج عنه أثران متناقضان

(١) الصاحبي، ابن فارس ٢٨.

ـــ أحيانا ـــ أحدهما يسير مع المؤثِّر وفي اتجاهه نفسه، والآخر يسير ضده. فحضريّة قريش لم تكن حادثة، بل كانت عقيدة ناضجة على درجة من الوعي كبيرة "[١]. ومن هنا سمت لغتها وارتفعت على كل اللغات حتى قالوا: " ارتفعت قريش في الفصاحة عن عنعنة تميم، وتلتلة بهراء، وكسكسة ربيعة، وكشكشة هوازن، وتضجيع قيس، وعجرفية ضبة "[٢].

ولا ينبغي أن نفهم من ذلك أنّ المراد به فصاحتها في حقبتها الأولى، لا واقعها من الفصاحة عند تدوين اللغة وأخذها، كما قال ابن عطية: " وكانت هذه الحواضر في مدّة النبي صلى الله عليه وسلّم سليمة ؛ لقلة المخالطة "[٣]؛ لأنّ المبرد في كتابه الفاضل نَصَّ على أنّ الأصمعي قال: " سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول: أفصح الناس سافلة قريش، وعالية تميم "[٤]، وهذه شهادة من أبي عمرو بن العلاء ـــ وهو أعرف الناس بلغات العرب وأيامهم حتى قيل عنه[٥]: إنّه لا يروي إلا عن أشياخ العرب، من حرشة الضباب في البلاد الكلدات، وجناة الكمأة في مغاني البداة، الذين لم يأكلوا شيراز الألبان ، ولم يجعلوا الثمر في الثّبان ـــ يتأكد لنا منها أنّ فصاحتها في عهده كانت لا تزال في أوجِّها مشرقة، وأنّ الأخذ عنها كان قبل غيرها، لأنّها كانت معيارهم في الانتقاء والتّخير للفصيح من تلك اللغات التي اتسمت بخصائص لهجية مشينة خلت منها لغة قريش، ولهذا كان أبو حاتم السجستاني يفضُّلها على ما سواها، ويقيس فصاحة غيرها بنسبة قربها منها، فيقول: " أحبّ الألفاظ واللغات إلينا أن نقرأ بها لغات قريش، ثم أدناهم من بطون مضر "[٦].

ومن الغريب أنّ تلك النصوص قد أجمعت أو كادت تجمع على فصاحة كنانة، لكنّها أخرجت قريشا، مع أن قريشا فرع عنها، فإن سلّمنا بأنّها كانت حاضرة، والحاضرة مظنة

(١) الاحتجاج بلغة كنانة وهذيل، إيمان محمد الكيلاني، ص ١٢٢.

(٢) مجالس ثعلب، أبو العباس ثعلب، ص ٨١، وسر صناعة الإعراب، أبو الفتح عثمان بن جني، ١/ ٢٢٩، والخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، ١١/٢.

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية الأندلسي، ١/ ٤٦.

(٤) الفاضل، أبو العباس المبرد، ١١٣

(٥) ينظر: رسالة الغفران، أبو العلاء المعري، ص ٦٤ ـــــ ٦٥.

(٦) البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، ٢٨٥/١.

الاختلاط والفساد، فإن تلك أيضا كانت جارة، وأيضا غيرها من القبائل التي ذكروها كانوا جيرانا لقريش، والجوار عندهم يقدح بالسلب في اللغة؛ لما يلزم عنه من تأثر اللسان وانقياده للمسموع من الآخر، فكيف إذن سلمت الفصاحة لتلك اللغات رغم هذا الجوار؟!.

بل من التناقض الذي وقع فيه ابن عطية أنّه صرّح بأنّ سبب فصاحتها مخالطتها في اللسان كنانة وثقيفا وخزاعة وهذيلا؛ لقربهم من مكة وتكرارهم عليها، وأنّ هذه الجملة هي التي انتهت إليها الفصاحة، وسلمت لغاتها من الدخيل، ثمّ بعد ذلك أخرجها من الفصاحة؛ لأنها كانت حاضرة، وقد كثر فيها السبي والتجار من الأعاجم ففسدت لغتها، ولم يُخرج معها تلك القبائل التي كانت تجاورها وتختلط بها !

وفي التكملة للجواليقي عن الفراء ما يؤكد لنا أنّ فصاحة هذه الحواضر كانت ما تزال في أوجها، فقد جاء فيه قول الفراء: " واعلم أنّ كثيرا مما نهيتك عن الكلام به، من شاذِّ اللغات ومستكره الكلام، لو توسّعت بإجازته لرخَّصتُ لك أن تقول: (رأيتُ رجلانِ) ... ولكن وضعنا ما يتكلم به أهل الحجاز، وما يختاره فصحاء أهل الأمصار، فلا نجيز لأهل الحضر والفصاحة أنْ يقولوا: السلام عليكِم[1] ... وأشباهه ، مما لا نحصيه من القبيح المرفوض "[2]. فهذا النص يؤكد أنّ ما وضَعَه الفراء كان مُختَاراً مما يتكلم به أهل الحجاز وفصحاء أهل الأمصار، وأنّ أهل الحضر كانوا لعهده أهل فصاحة؛ فهو من ثَمَّ لا يُجيْزُ لهم ذلك القبيح المستكره المرفوض الذي عُرفتْ به تلك اللهجات.

وإذا ذهبنا نتصفح كتب النحو فإننا سنجدها قد استشهدت بلغة قريش على لسان شعرائها الذين عاشوا خلال هذه الفترة الاحتجاجية التي حددوها بـ (١٥٠) سنة من بعد الإسلام.

وأهم من نقف عنده منهم: عمر بن أبي ربيعة المخزومي القرشي، المتوفى في حدود (٩٣ هـ)، من طبقة جرير والفرزدق[3]، فقد قال عنه الأصمعي: إنّه حجة، وقال أيضا: "

(١) يقصد بكسر الكاف، وهي لهجة لأناس من بكر بن وائل، ذكرها سيبويه في الكتاب، ٤/ ١٩٧.

(٢) تكملة إصلاح ما تغلط به العامة، الجواليقي، ص ٥.

(٣) ينظر: الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، ١/ ٧٠ و ٢٤٢، والأعلام، خير الدين الزركلي، ٥٢/٥.

سمعت أبا عمرو بن العلاء يحتج في النحو بشعره، ويقول: هو حجة "[١]. ولذلك استشهد له سيبويه وغيره بكثير من شعره، وإليك بعضا منها:

هل تَعْرِف اليومَ رَسْمَ الدّار والطّلَلا كما عرفتَ بجَفْنِ الصَّيْقَلِ الخلَلا

دارٌ لمَرْوَةَ إذْ أَهْلِي وأَهْلُهُمُ بالكانسيّةِ نَرْعَى اللَّهْوَ والغَزَلا[٢]

وقوله: فَواعِديه سَرْحَتَيْ مالكٍ أو الرُّبا بينهما أسْهَلا[٣]

وقوله: إذا هي لم تَسْتَكْ بعُودٍ أراكَةٍ تُنُخِّلَ، فاسْتاكتْ به، عُودُ إسْحِلِ[٤]

وقوله: أمّا الرحيلُ فدونَ بَعْدِ غدٍ فمتى تقولُ الدَّارَ تَجْمَعُنا[٥]

وقوله: ومن مالِئٍ عينيْه من شيءٍ غيْرِهِ إذا راحَ نحوَ الجمرَةِ البِيض كالدُّمَى[٦]

وقوله: لَعَمْرُك ما أدري وإنْ كنتُ دارياً بسَبْعٍ رَمَيْنَ الجَمْرَ أمْ بثَمَانِ[٧]

وقوله: فكانَ نَصيري دُونَ مَنْ كُنتُ أتّقِي ثلاثُ شُخوصٍ كاعِبانِ ومُعْصِرُ[٨]

ومنهم أيضا عبدالله بن قيس الرُّقيَّات (ت ٨٥هـ)، وهو قرشيٌّ، من بني عامر بن لؤي، قال عنه الأصمعي: إنّ شعره حجة[٩]. ومما استشهدوا به له قوله:

لن تراها ولو تأمّلتَ إلّا ولها في مفارِقِ الرَّأسِ طِيبَا[١٠]

وقوله: تبكيهم دَهْمَاءُ مُعْوِلةً وتقولُ سلْمَى وآ رَزِيَّتَيْهْ[١١]

وقوله: لا بَارَكَ اللهُ في الغوانِي هلْ يُصْبِحنَ إلّا لهنَّ مطَّلَبُ[١]

---

(١) فحولة الشعراء، عبد الملك بن قريب الأصمعي، ص ١٦ .

(٢) الكتاب، سيبويه، ٢٨٢/١، وملحقات ديوانه ٤٨٩.

(٣) الكتاب، سيبويه، ١/ ٢٨٢ ـــــ ٢٨٣ ، وديوانه ٣٤١.

(٤) الكتاب، سيبويه، ١/ ٧٨، وملحقات ديوانه ٤٩٠

(٥) الكتاب، سيبويه، ١/ ١٢٤، وديوانه ٣٩٤.

(٦) الكتاب، سيبويه، ١/ ١٦٥، وديوانه ٤٥١ .

(٧) الكتاب، سيبويه، ٣/ ١٧٥.

(٨) الكتاب، سيبويه، ٣/ ٥٦٦، والمقتضب، أبو العباس المبرد، ٢/ ١٤٨، وهو في ديوانه ٩٢ .

(٩) فحولة الشعراء، عبد الملك بن قريب الأصمعي ص ١٦. وينظر: الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، ٥/ ٨١ ـــــ ١١٠، الأعلام، خير الدين الزركلي، ٤/ ١٩٦.

(١٠) الكتاب، سيبويه، ٢٨٥/١، وهو في ملحقات ديوانه ١٧٦.

(١١) الكتاب ٢٢١/٢، وهو في ديوانه ٩٩.

ثانيا: هوازن وألفافها:

هوازن من كبرى قبائل العرب، نسبة إلى هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان بن مضر(٢)، وفيها بطون كثيرة، يجمعهم ثلاثة أجرام، كلهم لبكر بن هوازن، وكلهم جاءت النصوص والروايات والأخبار تؤكد فصاحتهم والاحتجاج بلغتهم، وهم: بنو سعد بن بكر، وبنو معاوية بن بكر، وبنو منبه بن بكر؛ فأما بنو سعد بن بكر فهم أظآر النبي صلى الله عليه وسلم، أرضعته منهم حليمة بنت أبي ذؤيب. وأما بنو منبه بن بكر فمنهم ثقيف، وهم بنو قيس بن منبه، بطن عظيم متسع، كانت مواطنهم بالطائف قريبا من مكة، وفي أرضهم كانت تقام سوق عكاظ يوما في السنة، يقصدها العرب من كل الأقطار. وأما بنو معاوية بن بكر بن هوازن ففيهم بطون كثيرة، منهم: نصر بن معاوية، وجُشَم بن معاوية، ومواطنهم كانت بالسروات، وسروات جُشَم متصلة بسروات هذيل، ومنهم أيضا بنو سلول بن مرة بن صعصعة بن معاوية، وبنو عامر بن صعصعة بن معاوية، وهم جرم كبير من أجرام العرب، لهم بطون أربعة : نمير، وربيعة، وهلال، وسوأة، وأشهر بطون ربيعة بن عامر: كلاب، وكعب، وبلادهم كانت بأرض نجد الموالية لتهامة(٣).

فهوازن ببطونها وألفافها تلك كانت من أفصح العرب ، وهي أيضا من قبائل الوسط التي كانت تختلط في بعض بطونها بتميم من أرض نجد ، وفي بعضها بكنانة وقريش من أرض تهامة ، ومعظم منازلها كانت مع هذيل بالسروات العالية من جبال الحجاز التي تتواتر النصوص والأخبار بفصاحتها .

ولكننا نجد أن تلك النصوص قد أسقطتها ولم تذكر منها إلا بطنين: أحدهما اتفقوا على فصاحته ، وهم بنو سعد بن بكر، والآخر أخرجوه منها باستثناء ابن خلدون، وهم ثقيف.

---

(١) الكتاب، سيبويه، ٣/ ٣١٣ ـــــــ ٣١٤ ، والمقتضب، أبو العباس المبرد، ١/ ١٤٢ ، وهو في ديوانه ٩٩ .

(٢) ينظر: جمهرة أنساب العرب، ابن حزم الأندلسي ١/ ٢٦٤ .

(٣) ينظر: تاريخ ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي، ٢/ ٣٠٩ ـــــــ ٣١١.

وحتى لا نطيل في الكلام، إليك ما جاء في فصاحتها عامة وفي فصاحة بطونها تلك بأسمائها خاصة، عن أهل الشأن الأوائل ممن قولهم في هذا حجة معتبرة ومقدمة على ما جاء في تلك النصوص.

روى أبو عبيد من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنّه قال[1]: نزل القران على سبع لغات: منها خمس بلغة العَجز من هوازن، وهم الذين يقال لهم: عُليا هوازن، وهم خمس قبائل أو أربع، منها: سعد بن بكر، وجُشَم بن بكر، ونصر بن معاوية، وثقيف. قال أبو عبيد: وأحسب أفصح هؤلاء بني سعد بن بكر؛ لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: " أنا أفصح العرب بيد أني من قريش، ونشأت في بني سعد بن هوازن "[2]، وكان مسترضعا فيهم، وهم الذين قال فيهم أبو عمرو بن العلاء: أفصح العرب عُليا هوازن، وسفلى تميم، فهذه ـــ أي : القبائل المذكورة ـــ عليا هوازن، أما سفلى تميم فبنو دارم. وعن الأصمعي قال: قال أبو عمرو بن العلاء أفصح الشعراء ألسنا وأعربهم أهل السروات، وذكر منهم: هذيلا، وبجيلة، وثقيفا، وأزد شنوءة[3]. وعن أبي زيد الأنصاري قال: أفصح الناس سافلة العالية، وعالية السافلة ، يعني عجز هوازن. قال: ولست أقول: قالت العرب، إلا ما سمعت منهم، وإلا لم أقل: قالت العرب [4]. وقال عمر بن الخطاب: " لا يملينّ في مصاحفنا إلا غلمان قريش وثقيف "[5]. وقال عثمان بن عفان: " اجعلوا المُملِيَ

(١) ينظر: فضائل القرآن، أبو عبيد القاسم بن سلام، ٢٤٥، والصاحبي، أحمد بن فارس ٣٢، والبرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، ٢٨٣/١، والإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، ١/ ١٦٩، والمزهر في علوم اللغة، جلال الدين السيوطي، ١/ ١٦٧.

(٢) ينظر هذا الحديث: غريب الحديث، أبو عبيد القاسم بن سلام، ١/ ١٤٠، وفضائل القرآن، أبو عبيد القاسم بن سلام، ٢٠٤، والفائق في غريب الحديث، الزمخشري، ١١/١، ومجالس ثعلب، أبو العباس ثعلب، ١٣ ، والصاحبي، أحمد بن فارس، ٣٢، وربيع الأبرار ٥ / ٢٠١ ، والبرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، ١/ ٢٨٣، والمزهر في علوم اللغة، جلال الدين السيوطي، ١/ ١٦٧. وضعفه أصحاب الحديث مع اعتبارهم صحة معناه، ينظر: المغني عن حمل الأسفار، زين الدين العراقي،٦٣٥/١، والتلخيص الحبير، ابن حجر العسقلاني، ١٤/٤ .

(٣) ينظر: العمدة في محاسن الشعر، ابن رشيق القيرواني، ١/ ٨٨، ومعجم البلدان، ياقوت الحموي ٣/ ٢٠٥، والمزهر في علوم اللغة، جلال الدين السيوطي، ٢/ ٤١٠.

(٤) العمدة في محاسن الشعر، ابن رشيق القيرواني، ٨٩/١ ، والمزهر في علوم اللغة، جلال الدين السيوطي، ٢/ ٤١٠.

(٥) الصاحبي، أحمد بن فارس ٣٢، والمزهر في علوم اللغة، جلال الدين السيوطي، ١/ ١٦٧.

من هذيل والكاتب من ثقيف "[١]. وقال أبو عمرو بن العلاء: " سألت رجلا من سعد بن بكر من أهل ذات عرق ... وكان من أفصح الناس "[٢]. " وبنو سعد بن بكر بن هوازن أفصح العرب، فهم من الأعجاز "[٣].

بل إنّ الأزهري وهو من علماء القرن الرابع يؤكد لنا أنّ هوازن من القبائل التي استمر الأخذ عنها إلى ذلك الحين، وقد فعل هو ذلك بنفسه فدوّن عنها ألفاظا كثيرة؛ حين لمس في منطقها فصاحة أصيلة وسليقة سليمة، فقال: " وكان القوم الذين وقعت في سهمهم عربا، عامتهم من هوازن ، واختلط بهم أصرام من تميم وأسد ... يتكلمون بطباعهم البدوية، وقرائحهم التي اعتادوها، ولا يكاد يقع في منطقهم لحن أو خطأ فاحش، فبقيت في إسارهم دهرا طويلا ... واستفدت من مخاطبتهم ومحاورة بعضهم بعضا ألفاظا جمة، ونوادر كثيرة، أوقعت أكثرها في موقعها من الكتاب "[٤].

هذا فيما يتعلق بالروايات التي جاءت في فصاحة هوازن وبطونها وأخذ اللغة عنها ، أما مصداق ذلك فهو كتب النحو، فقد استشهد سيبويه والمبرد بشعر أمية بن الصلت وهو من ثقيف، وبشعر أبي محجن الثقفي، والحارث بن كَلَدَة الثقفي وغيرهم

ثالثا: ربيعة:

نسبة إلى ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان[٥]، وربيعة ومضر أخوان، وأشهر القبائل التي تنتسب إلى ربيعة: أسد، وضُبَيْعَة. ووهمت هنا الباحثة: صالحة آل غنيم ، فنسبت بني دُبير وبني فقعس في رسالتها (ماجستير) إلى أسد بن ربيعة هذا، وهو خطأ؛ والصحيح أنهما بطنان من أسد بن خزيمة من مضر، وتلك من أفصح القبائل كما تقدّم معنا [٦]، أما أسد بن

(١) الصاحبي، أحمد بن فارس ٣٢، والمزهر في علوم اللغة، جلال الدين السيوطي، ١/ ١٦٧.

(٢) الصحاح، إسماعيل بن حماد الجوهري، ١/ ٤٩ (مادة: درأ)، والجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله القرطبي، ١٦١/١٢، ولسان العرب، جمال الدين ابن منظور، ٧١/١ (درأ).

(٣) العقد الفريد، ابن عبد ربه ٥/ ٥.

(٤) تهذيب اللغة، أبو منصور الأزهري، ١/ ٨.

(٥) جمهرة أنساب العرب، ابن حزم الأندلسي، ٢/ ٢٩٢.

(٦) ينظر: رسالتها " اللهجات في الكتاب لسيبويه: أصواتا، وبنية "، صالحة آل غنيم، ص ٤٤.

ربيعة ، فتنتسب إليه: " جديلة، وعنزة، وعميرة. قال أبو عبيدة: " وقد دخلوا في عبد القيس"[١].

ومن ضُبَيْعة : بنو أحمس ، وبنو الحارث ، وكان من بني أحمس الشاعر المسيب بن علس خال الشاعر الأعشى ، أعشى بكر ، والمتلمس ، وهو جرير بن عبد المسيح .

ومن ربيعة أيضا: بنو " وائل " ، وقد اشتهر منهم: بكر بن وائل، وتغلب بن وائل، وبنو حنيفة وهم أهل اليمامة ، ويشكر، وبنو عجل. ومن أشهر شعرائهم عموما: عمرو بن كلثوم التغلبي، وكليب، ومهلهل بن ربيعة التغلبي ، والقطامي، والأخطل، وكعب بن جعيل بن قمير بن عجرة التغلبي، وليلى بنت عامر أخت الوليد بن عامر من بني صفي، وهي القائلة[٢]:

أيا شجر الخابور مالك مورقا كأنك لم تجزع على بن طريف

ومنهم أيضا الأخنس بن شهاب الشاعر، وأعشى بني تغلب، وعميرة بن جعل الشاعر، والحارث بن حلِّزة اليشكري، وسويد بن أبي كاهل، والراجزان الشهيران: الأغلب العجلي، وأبو النجم العجلي، والعباس بن الأحنف من بني حنيفة، وغير هؤلاء كُثُر.

ففي ربيعة كان فحول الشعراء ومصاقع الخطباء، وفيها كانت العدّة والعدد، وهي من القبائل العربية التي نزل بها القرآن، والقرآن لا يتخيّر إلا أسمى اللغات فصاحة، وأعلاها بيانا؛ ففي الإتقان: " وقال أبو حاتم السجستاني: نزل بلغة قريش، وهذيل، وتميم، والأزد، وربيعة، وهوازن، وسعد بن بكر "[٣].

ولها السبق في قول الشعر والتَّقْدُمَة، والشعر ديوان العرب، وأفصح العرب أكثرهم شعرا وشعراء، قال ابن سلام: " وكان شعراء الجاهلية في ربيعة، أولهم: المهلهل، والمرقشان، وسعد بن مالك، وطرفة بن العبد، وعمرو بن قمِّيئة، والحارث بن حلِّزة،

(١) نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، القلقشندي، ٣٨

(٢) ينظر: جمهرة أنساب العرب، ابن حزم الأندلسي، ٢/ ٣٠٦.

(٣) الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، ١/ ١٦٩.

والمتلمس، والأعشى، والمسيب بن علس، ثم تحول الشعر في قيس ... ثم آل ذلك إلى تميم، فلم يزل فيهم إلى اليوم "[١]

وقد أخرجت تلك النصوص كما رأينا ربيعة من دائرة الفصاحة حين أُخذت اللغة عن قبائل العرب، وبعضها سمّى لنا بطونا منها ، فذكر لنا: تغلبا وبكرا وبني حنيفة، وأجمعت على أنّ سبب ذلك هو مجاورتها للأعاجم من الفرس أو الروم أو السريانيين أو الأنباط، ونسيت أنّ هذا الجوار كان حاصلا ومستمرا من قبل أن يشرع العلماء في أخذ اللغة وتدوينها بآماد طويلة لا يُعلم متى أولها، فإذا كان ذلك هو ما قدح في لغة هؤلاء ومنع اللغوين من أن يأخذوا اللغة عنهم، فهو أيضا يقدح في لغة المتقدمين، ممن عاشوا في عصور الاحتجاج الأولى؛ لأنهم كانوا مجاورين أيضا ، لكنَّ ذلك لم يقع ؛ فإنّ النحويين قد أخذوا بشعر أولئك الشعراء الذين مضى ذكرهم، واحتجوا به في كتبهم.

ونحن هنا سنقتصر على ذكر ثلاثة من متأخري شعراء ربيعة المحتج بشعرهم في كتب النحو، أمّا أولئك الفحول من شعرائها الجاهليين وأصحاب المعلقات منهم فلن نذكرهم، وهؤلاء الثلاثة هم: الأخطل، والقُطاميّ، وأبو النجم العجلي.

أمّا الأخطل؛ فهو غياث بن غوث بن الصلت بن طارفة، من بني تغلب، نشأ على المسيحية في أطراف الحيرة بالعراق، وتوفي (٩٠هـ)[٢] .

وهو أيضا من الشعراء المشهود لهم بالفصاحة، قال الأصمعي: كان أبو عمرو يفضّله، ويقول: " لو أدرك الأخطل من الجاهلية يوما واحدا ما قدّمت عليه جاهليّاً ولا إسلاميّا "[٣]، وسئل يونس بن حبيب: " أيُّ الثلاثة أشعر؟ يعني جريرا، والفرزدق، والأخطل. قال: اتفقت العلماء على أنّ أشعرهم الأخطل. قيل: من هم؟ قال: أبو عمرو بن العلاء، وعبدالله بن أبي إسحاق، وميمون الأقرن، وعنبسة الفيل، وعيسى بن عمر"[٤].

(١) طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي، ١/ ٤٠، وينظر: كتاب فحولة الشعراء، عبد الملك بن قريب الأصمعي ص ١٨، والعمدة في محاسن الشعر، ابن رشيق القيرواني ١/ ٨٦ ـــــــــ ٨٨.

(٢) ينظر: الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، ٨/ ٢٩٠، والأعلام، خير الدين الزركلي، ١٢٣/٥.

(٣) فحولة الشعراء، عبد الملك بن قريب لأصمعي، ص ١٣.

(٤) ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، الزمخشري ٢١٢/٥.

وأمّا القُطاميُّ فهو عمير بن شييم بن عمرو بن عباد، من جشم بن بكر التغلبي، كان من نصارى تغلب في العراق قبل إسلامه، ولُقِّبَ بصريع الغواني؛ لأنّ جلّ شعره كان في الغزل، وتوفي نحو (١٣٠ هـ)[١].

و أمّا أبو النّجم العجليّ فهو الفضل بن قدامة العجليِّ، من بني عجل من بكر بن وائل، كان من أشهر الرَّجازين في العصر الأمويّ، قال: أبو عمرو بن العلاء: كان ينزل سواد الكوفة وهو أبلغ من العجاج، توفيَ (١٣٠هـ)[٢].

ولا يخفى ما تتضمنه كتب النحو من شواهد شعرية لهؤلاء الشعراء الثلاثة، وهم كما نرى من وفاتهم لم يكونوا في العصر الجاهلي ولا في مطلع العصر الإسلامي وإنّما في أواخر مرحلة الاحتجاج التي حددوها بـ (١٥٠) سنة بعد ظهور الإسلام، ومنهم كما مرّ في ترجمتهم من نشأ على المسيحيّة قبل أن يسلم، وبالتالي فإنّ ما ذكرته تلك النصوص التي أخرجت بكرا وتغلبا وربيعة بعمومها من القبائل التي أخذت عنها اللغة ، وعلَّلَتْ به لإخراجها؛ يتناقض مع هذا ؛ لأنَّ لغة هؤلاء الشعراء تمثّل لغة قبائلهم.

وهذه طائفة يسيرة من شواهدهم الشعرية مما في كتب النحو نقتصر عليها، منها للأخطل قوله:

وكرَّار خلْفِ المُحْجرين جَوادَهُ إذا لم يُحامِ دونَ أُنْثى حَليلُها [٣]

وقوله: أبَنِي كُلَيْب إنَّ عَمَّيَّ اللذا سَلَبَا المُلوكَ وفكَّكَا الأغلَلا[٤]

وقوله: إلى إمامٍ تُغَادِينَا فواضِلُه أَظْفَرَه اللهُ فَلْيَهْنِئ له الظَّفَرُ[٥]

وقوله: ولقد أبيتُ من الفتاةِ بمنزلٍ فأبيتُ لا حَرِجٌ ولا محرومُ[٦]

وقوله: كُرُّوا إلى حَرَّتَيْكم تعمرونهما كما تكرُّ إلى أوطانها البَقَرُ[٧]

(١) ينظر: الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، ٢٤/ ٢١، والأعلام، خير الدين الزركلي، ٨٨/٥.

(٢) ينظر: الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، ١٠/ ١٨٣ ـــــ ١٩٨، والأعلام، خير الدين الزركلي، ١٩٦/٤.

(٣) الكتاب، سيبويه، ١٧٧/١، وديوان الأخطل ٢٣٥.

(٤) الكتاب، سيبويه، ١٨٦/١، وديوان الأخطل ٤٤.

(٥) الكتاب، سيبويه، ٣١٧/١، وديوانه ١٠١.

(٦) الكتاب، سيبويه، ٨٤/٢ و ٢/ ٣٩٩، وديوانه ٨٤.

(٧) الكتاب، سيبويه، ٩٨/٣ ـــــ ٩٩، وديوانه ١٠٨.

ومنها للقُطاميّ قوله:

فكَرَّتْ تَبْتَغِيه فوافقتْه على دَمِهِ ومَصْرَعِه السَّباعا [١]

وقوله: كَمْ نالَني منهُمُ فَضْلاً على عَدَمٍ إذْ لا أكادُ من الإقتارِ أحْتَمِلُ[٢]

وقوله: وخَيرُ الأمرِ ما استقبَلتَ منه وليس بأنْ تَتَبَّعه اتِّباعا[٣]

ومنها لأبي النجم العجليّ قوله:

قد أصبحت أمُّ الخِيارِ تَدَّعي عليَّ ذنباً كلُّه لمْ أصْنَعِ [٤]

وقوله: يأْتي لها من أَيْمُنٍ وأشْمُلِ[٥]

وقوله: في لَجَّةٍ أَمْسِكْ فُلاناً عن فُلِ[٦]

وقوله: أَقَبُّ مِنْ تَحْتُ عَرِيضٌ مِنْ عَلُ[٧]

وقوله: فَقَرِّبَنْ هذا وهذا أزْحِلُهْ[٨]

وقوله: يا ناقُ سِيري عَنَقاً فسيحَا إلى سُلَيمانَ فَنَستَرِيحَا[٩]

بل إنّ سيبويه يحكي كثيرا في كتابه عن لغة تغلب وبكر ابنيْ وائل، فيقول مثلا: " وهي لغة بكر بن وائل وأناس كثير من تميم "[١٠]، " وقال أنا س من بكر بن وائل: من أحلامِكم، وبِكِم "[١١]، " ومما جاء منجزما بالاستفهام قوله وهو رجل من بني تغلب: جابر

(١) الكتاب، سيبويه، ٢٨٤/١، وديوانه ٤٥.
(٢) الكتاب، سيبويه، ٢/ ١٦٥، وديوانه ٦.
(٣) الكتاب، سيبويه، ٨٢/٤، وديوانه ٤٠
(٤) الكتاب، سيبويه، ١/ ٨٥.
(٥) الكتاب، سيبويه، ٢٢١/١ و ٢٩٠/٣ و٣/ ٦٠٧.
(٦) الكتاب، سيبويه، ٢/ ٢٤٨ و ٤٥٢/٣.
(٧) الكتاب، سيبويه، ٢٨٩/٢ ـــــ ٢٩٠.
(٨) الكتاب، سيبويه، ٤/ ١٨٠.
(٩) الكتاب، سيبويه، ٣/ ٣٤ ـــــ ٣٥.
(١٠) الكتاب، سيبويه، ٤/ ١١٣ ـــــ ١١٤ .
(١١) الكتاب، سيبويه، ١٩٧/٤.

بن حنى ..." [1] ، " وزعم الخليل أنَّ أناسا من بكر بن وائل يقولون: ردْن، ومدْن ... جعلوه بمنزلة: رد، ومد ... "[2]. ولم يستضعف سيبويه لغتهم إلّا مرّة واحدة.

فكيف إذن بعد هذا الفيض الهادر من لغة ربيعة: شعر ونثرا؛ نسلِّم بما جاء في تلك النصوص من عدم أخذ اللغة عنها؟! أوليس لغة كل قبيلة إلا هذه الشواهد واللغات المحكية في كتب الاحتجاج؟

وكان الجوهري صاحب الصحاح ـــ على الرغم من تأخره ـــ ممن لمسوا هذه الفصاحة الباقية، فشافه باللغة أعراب ربيعة والحجاز، كما جاء في ترجمته " وشافه باللغة العرب العاربة، وطوّف بلاد ربيعة ومضر "[3]. وحكى ذلك هو في مقدمة صحاحه لكنّه لم يسمِّ أحدا، فقال: " أمّا بعد، فإنّي قد أودعت هذا الكتاب ما صحَّ عندي من هذه اللغة ... بعد تحصيلها في العراق رواية ... ومشافهتي بها العرب العاربة في ديارهم بالبادية"[4].

إذن من كل ما تقدّم معنا في هذا المبحث يتبيّن لنا أنّ هذه القبائل لم تكن خارجة عن الفصاحة حين دُوِّنت اللغة ؛ لأن لغة شعرائها الذين عاصروا أوائل النحاة خلال فترة الاحتجاج التي حددوها من بعد الاسلام بـ (١٥٠) سنة؛ نجدها حاضرة بقوة في كتب النحو الأولى، فضلا عن الروايات والأخبار التي أوردناها في تعضيد ذلك. وهذا يعني ضرورة إعادة النظر في تلك النصوص التي قطعت بخروجها عن الفصاحة وعدم تلقّي اللغة عنها، كما يعني أيضا عدم التّسليم بكل ما ورد فيها، لا سيّما فيما يتعلق بهذه القبائل ولغاتها، وأن تكون النظرة إليها عند التعامل معها أو الاستدلال بها من باب الاستئناس بها لا القطع، لا سيما وأنّه قد ثبت لنا من خلال هذا المبحث والذي قبله أنّه لم يصل إلينا شيء عن أصحاب الشأن من أوائل النحويين واللغوين ما يؤيدها في فحواها ومحتواها، وتحديدا فيما يتعلق منها بهذه القبائل التي أخرجتها عن دائرة الفصاحة والاحتجاج. ذلك لأنّ العكس هو الذي ثبت لنا فيها كما تقدّم معنا في هذا المبحث.

---

(١) الكتاب، سيبويه، ٣/ ٩٥.

(٢) الكتاب، سيبويه، ٣/ ٥٣٥.

(٣) بغية الوعاة، جلال الدين السيوطي، ٤٤٦/١.

(٤) الصحاح، إسماعيل بن حماد الجوهري، ٣٣/١.

نتائج البحث

تمخض هذا البحث عن نتائج كثيرة، نقتصر هنا على ذكر أهمها، وهي:

١ ـــ أثبت البحث أنّ المعيار الذي أخذت في ضوئه اللغة عن القبائل العربية هو معيار السلامة اللغوية ، وليس البداوة أو البعد عن العجم أو القرب من قريش أو غير ذلك مما ذكروه، وأنّ تلك السلامة اللغوية التي عولوا عليها هي التي مثلها القران في أعلى صورها.

٢ ـــ وكشف البحث عمّا بين تلك النصوص التي وردت عن المتأخرين بتعيين القبائل التي أخذت عنها اللغة والتي لم تؤخذ عنها من تناقض، وأنّها جميعها لم تستند في ذلك على رواية منقولة عن أحد من اللغويين أو النحويين الأوائل الذين اضطلعوا بهذه المهمة، بل إنّ بعض ما جاء عن هؤلاء اللغويين والنحويين، وكذلك ما هو موجود في كتب النحو ـــ يتعارض مع ما في تلك النصوص.

٣ ـــ وكشف البحث عن أنّ ما نسبه السيوطي للفارابي من تعيين للقبائل التي أخذت عنها اللغة والقبائل التي لم تؤخذ عنها؛ يختلف إلى درجة كبيرة جدا عمّا هو في الأصل في كتاب الفارابي نفسه، وأنّ السيوطي ربما تأثر في ذلك بما جاء في مقدمة تفسير ابن عطية، وبالتالي فإنّ الاعتماد عليه من قبل الباحثين ونسبتهم له إلى الفارابي رأسا دون رجوع منهم إلى الأصل يُعدّ جورا عليه وتقويلا له ما لم يقله.

٤ ـــ وأثبت البحث أنّ كثيرا من تلك القبائل التي أخرجوها عن الفصاحة عند أخذ اللغة كانت لا تزال في أوجِّ سلامتها وفصاحتها، بل إنّ منها ما عدّوه معيارا لهم في الأخذ كقريش، مؤكدا ذلك بما ثبت في كتب النحو من استشهاد بأشعار شعراء تلك القبائل، ممن عاشوا خلال مرحلة التدوين أو قبلها بقليل.

٥ ـــ وأكد البحث على أنّ الحواضر العربية، وتحديدا قريشا وثقيفا، كانت لا تزال خلال مرحلة الاحتجاج المحددة بـ (١٥٠) سنة بعد الإسلام؛ في عزِّ فصاحتها وسلامتها، وأنّ ما جاء في تلك النصوص يمكن حمله على ما بعد هذه الفترة، إذ كاد يقتصر الأخذ فيها على البوادي العربية.

٦ ـــ وأثبت البحث الاحتجاج بلغة ربيعة وأخذ اللغة عنها خلال مرحلة الاحتجاج، خلافا لما ذهب إليه ابن عطية وابن خلدون والسيوطي فيها، وذلك من خلال الوقوف على شعر شعرائها الذين عاشوا خلال تلك الفترة وما يحكى من لغتها في أمات كتب النحو الأولى.

٧ ـــ وأظهر البحث أنّ تلك النصوص، وتحديدا ما جاء عند ابن عطية والسيوطي وابن خلدون من تسمية القبائل التي لم تؤخذ عنها اللغة والتعليل لها؛ تفتقر في ذلك إلى الدليل الذي يؤيدها، إذ لم يثبت لنا شيء عن أوائل النحويين واللغويين أنّهم سمّوا لنا شيئا من تلك القبائل التي لم تؤخذ عنها.

٨ ـــ وأكد البحث على أنّ التعامل مع تلك النصوص ينبغي أن يكون في إطار الاستئناس بها لا القطع ، وأنّ التسليم بكل ما جاء فيها مما ينافي الحقيقة العلمية التي تقتضي التدقيق والتمحيص والتثبت من كل ما قيل أو يقال.

٩ ـــ وأخيرا يوصي البحث بضرورة المزيد من الدراسات الجادة في هذه القضية، لاسيما فيما يتعلق بالقبائل التي أخرجتها تلك النصوص عن الفصاحة والتي لم يتطرق لها هذا البحث.

قائمة المصادر والمراجع

١. أبو البركات كمال الدين عبدالرحمن بن محمد بن الأنباري، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تح: د. إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، الزرقاء – الأردن، ط ٣، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

٢. أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا القزويني، الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، تح: أحمد حسن بسج، الناشر: محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

٣. أبو الحسن جمال الدين علي بن يوسف القفطي، إنباه الرواة على أنباه النحاة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ط١، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٢م.

٤. أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي، المحكم والمحيط الأعظم، تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٠م.

٥. أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، النكت والعيون، تح: السيد عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت.

٦. أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد الأندلسي، نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب، تح: د. نصرَت عبد الرحمن، مكتبة الأقصى، عمَّان، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .

٧. أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تح: إبراهيم الإبياري، دار الكتاب اللبنانيين، بيروت، ط ٢، ١٤٠٠هـ.

٨. أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب، مجالس ثعلب، تح: عبدالسلام محمد هارون، دار المعارف، مصر،١٩٦٠م.

٩. أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، الفاضل، تح: عبد العزيز الميمني، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط ٢، ١٩٩٥م.

١٠. أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، المقتضب، تح: محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت.

١١. أبو العلاء أحمد بن عبدالله بن سليمان التنوخي المعري، رسالة الغفران، تح: علي حسن فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

١٢. أبو الفتح عثمان بن جني، الخصائص، تح: محمد علي النجار، عالم الكتب، بيروت.

١٣. أبو الفتح عثمان بن جني، سر صناعة الإعراب، تح: حسن هنداوي، دار القلم، دمشق، ط ١، ١٩٨٥م.
١٤. أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تح: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط ٢، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.
١٥. أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني، الأغاني، تحقيق وإشراف لجنة من الأدباء، الدار التونسية للنشر، ودار الثقافة – بيروت ، ط ٦، ١٩٨٣م.
١٦. أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، التلخيص الحبير في تخريج أحاديث لرافعي الكبير، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٩هـ /١٩٨٩م.
١٧. أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن علي بن منظور الإفريقي، لسان العرب، دار صادر ـــ بيروت، ط ١٣، ١٤١٤هـ.
١٨. أبو الفضل محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني الملقب بمرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، مجموعة من المحققين، دار الهداية.
١٩. أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، الفائق في غريب الحديث، تح: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة.
٢٠. أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، ربيع الأبرار ونصوص الأخيار، تح: عبد الأمير مهنا، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط ١، ١٤١٢هـ/١٩٨٠م.
٢١. أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه، الكتاب، تح: عبد السلام هارون، ط ٣، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
٢٢. أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي الأندلسي، طبقات النحويين واللغويين، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط ٢.
٢٣. أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء، معاني القرآن، تح: أحمد يوسف نجاتي، ومحمد علي نجار، وعبد الفتاح إسماعيل شلبي، دار المصرية للتأليف والترجمة، مصر.
٢٤. أبو زيد عبد الرحمن محمد بن محمد بن خلدون الحضرمي، تاريخ ابن خلدون، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٢٥. أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني، الأنساب، تقديم وتعليق: عبدالله عمر البارودي، دار الجنان.

٢٦. أبو سعيد الحسن بن عبد الله السيرافي، أخبار النحويين البصريين، تح: طه محمد الزيتي، ومحمد عبد المنعم خفاجي، مطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده، مصر.
٢٧. أبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي، كتاب فحولة الشعراء، تحقيق المستشرق: ش. تورّي، قدّم لها: صلاح الدين المنجِّد، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط ٢، ١٤٠٠ هـ/١٩٨٠م.
٢٨. أبو طاهر مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة، تح: محمد المصري، جمعية إحياء التراث الإسلامي، الكويت، ط ١، ١٤٠٧هـ.
٢٩. أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تح: د. مهدي المخزومي، ود. إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.
٣٠. أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبدالله بن بهادر الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، ط ١، ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م
٣١. أبو عبد الله محمد بن أحمد بن فرح القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تح: سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، ١٤٢٣ هـ/٢٠٠٣م.
٣٢. أبو عبد الله محمد بن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، تح: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة.
٣٣. أبو عبدالله علاء الدين الحنفي، إكمال تهذيب الكمال في أسماء الرجال، تح: أبو عبد الرحمن عادل بن محمد، و أبو محمد أسامة بن إبراهيم، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، ط١، ١٤٢٢هـ /٢٠٠١م.
٣٤. أبو عبيد القاسم بن سلام الهروي، غريب الحديث، تح: محمد عبد المعيد خان، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١، ١٣٩٦هـ.
٣٥. أبو عُبيد القاسم بن سلاّم بن عبد الله الهروي، فضائل القرآن للقاسم بن سلام، تح: مروان العطية، ومحسن خرابة، ووفاء تقي الدين، دار ابن كثير (دمشق – بيروت)، ط ١، ١٤١٥ هـ -١٩٩٥م
٣٦. أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط ٥، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
٣٧. أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، تح: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٠٤هـ /١٩٨٣م.

٣٨. أبو مالك غياث بن غوث الأخطل، ديوان الأخطل، تح: أنطون صالحاني، بيروت، ١٩٨١م.
٣٩. أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تح: عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.
٤٠. أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري، تهذيب اللغة، تح: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.
٤١. أبو منصور موهوب بن أحمد الجواليقي، تكملة إصلاح ما تغلط به العامة، تح: عز الدين التنوخي، دمشق، المجمع العلمي.
٤٢. أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية)، تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٤، ١٤٠٧هـ/١٩٧٨م.
٤٣. أبو نصر تاج الدين عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، تح: محمود محمد الطناحي، و د. عبد الفتاح محمد الحلو، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ط ٢، ١٤١٣هـ.
٤٤. أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان الفارابي، الحروف، تح: محسن مهدي، دار المشرق، بيروت، ١٩٧٠م.
٤٥. إيمان محمد أمين الكيلاني، الاحتجاج بلغة كنانة وهذيل في ضوء صحيفة أبي نصر الفارابي، مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، مج (٣٤)، العدد (١)، ٢٠٠٧م.
٤٦. جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.
٤٧. جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، الاقتراح في أصول النحو، تح: عبد الحكيم عطية، وراجعه علاء الدين عطية، دار البيروني، ط ٢، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.
٤٨. جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، المزهر في علوم اللغة، تح: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٨م.
٤٩. جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا ـــ لبنان.

٥٠. جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تح: عبد الحميد هنداوي، المكتبة التوقيفية، مصر.
٥١. خير الدين بن محمد بن محمود الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط ١٥، ٢٠٠٢م.
٥٢. زين الدين عبد الرحيم العراقي، المغني عن حمل الأسفار، تح: أشرف عبد المقصود، مكتبة طبرية، الرياض، ١٤١٥ه-١٩٩٥م.
٥٣. شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٥م
٥٤. صالحة راشد غنيم آل غنيم، اللهجات في الكتاب لسيبويه: أصواتا وأبنية، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، مكة، ١٤٠٢-١٤٠٣هـ.
٥٥. عبد الله بن قيس الرقيات، ديوان عبد الله بن قيس الرُّقيات، تح: محمد يوسف نجم، بيروت، ١٣٧٨م.
٥٦. عبدالله بن عبد الرحمن العقيلي الهمداني المصري، شرح ابن عقيل، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار التراث، القاهرة، ط ٢٠، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.
٥٧. عمر بن أبي ربيعة، ديوان عمر بن أبي ربيعة، تح: محمد محيي الدين، مكتبة السعادة، ١٣٧١م.
٥٨. عمير بن شييم بن عمرو التغلبي القطامي، ديوان القطامي، تح: باكوب بارث، ليدن، ١٩٠٢م.
٥٩. ميساء صائب رافع عبود، لهجة قبيلة كنانة: دراسة لغوية، مجلة الأستاذ، العدد (٢٠٣)، ١٤٣٣هـ-٢٠١٢م.